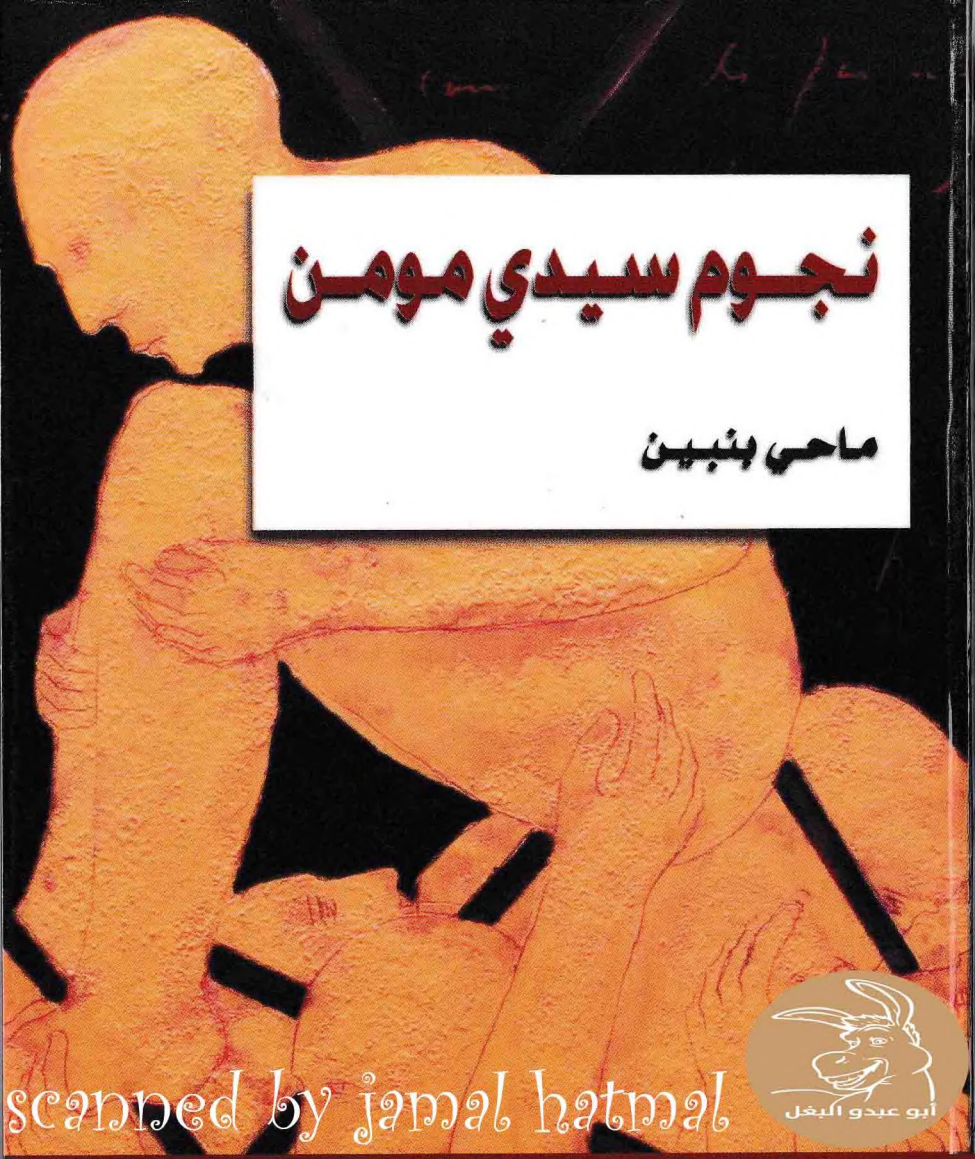

نجوم سيدي مومن

ماحي بنبين

scanned by jamal hatmal
أبو عبدو البغل

الرواية الحاصلة على

جائزة المامونية الأدبية

2010

ماحي بنبين

نجوم سيدي مومن

رواية

هذا الكتاب استفاد من برامج دعم النشر
الذي يقدمه المعهد الفرنسي
وزارة الشؤون الخارجية الأوربية

ترجمة
محمد المزديوى

نشر الفنك

© منشورات فلاماريون 2010
خاص بالنسخة العربية التي تسوق بالمغرب
© نشر الفنك 2012
91، شارع أنفا – الدار البيضاء
ردمك : 978-9954-1-6743-4
صورة الغلاف : ماحي بنبين
تصميم الغلاف : Ouragan Communication

1

يستطيع المتجول أن يسير بمحاذاة حيًنا دون أن يشك لحظة بوجوده. جدار عظيم من الطوب، تزينه فتحات صغيرة، يفصله عن الشارع حيث تُحدِث سيول السيارات المتواصلة ضوضاءً لا توصف. كنا قد أحدثنا في الحائط شقوقا شبيهة بفتحات الرمي من حيث يمكننا تأمل العالم الآخر. عندما كنت طفلا، كانت لعبتنا المفضلة تتلخص في صب أقداح البول على الميسورين والتزام الخرس، بينما هم يزبدون ويلعنون، ناظرين إلى السماء. أخي حميد كان زعيمنا. نادرا ما كان يخطئ ضحيته. كنا نراقبه يشتغل ونحن نكتم ضحكنا الذي ينفجر، بُعيْد الدوش الذهبي، بطريقة مجنونة. كنا نبتهج ونحن نتمرغ في التراب مثل كلاب صغيرة. منذ اليوم الذي سقط فيه حجر رماه ضحيةٌ حانقٌ على وأسي وأنا لا أتمتع بجميع مداركي. على الأقل هذا ما يظنه المحيطون بي الذين لم يتوقفوا عن قض مضجعي به منذ صغري. انتهى الأمر بي إلى الرضوخ، ومع الوقت أخذت أستمتع بالأمر. كانت كل هفواتي تحظى بكثير من التساهل بسبب تلك الإعاقة. رغم أني لم أكن أكثر بلاهة من الآخرين. في لعبة كرة القدم، سيؤكد الجميع أني أفضل حارس مرمى في الحي الصفيحي. مَثَلي الأعلى اسمه ياشين. ياشين الذائع الصيت. لم يسبق أن رأيته يلعب، لكن تُحكى عنه الكثيرُ من القصص... يؤكد البعض أنه كان قادرا على

التصدي لكرة يقذفها مدفع كُرُوبْ. ويقول آخرون إن جسمه يتوقف عن الخضوع لقوانين الجاذبية. يقال أيضا إن موته المبكّرة خطط لها مهاجمون دوليون أذلّتهم موهبتُهُ . مهما يكن الأمر، كنت أريد أن أكون مثل ياشين أو لا شيء. لذا غيرت اسمي وتسميت باسمه. لم تستسغ يمّا ذلك. لكن بسبب إصراري على عدم الإجابة عندما يُنادى عليّ بالاسم الذي ضحي من أجله بكبش أمام كوخنا، استسلمتْ وأخذت تناديني بالاسم الذي يناديني به الجميع. وحده والدي، الذي كان دوما عجوزا وعنيدا، استمر بمناداتي باسم عفا عليه الزمن : موح. باسم كهذا لا يمكن للمرء أن يذهب بعيدا. على أي لم أستمر كثيرا في الحياة لأنه لم يكن فيها ما يفعل. وأنا حريص على أن أصرح به على الفور: أنا لست نادما على وضعي حدّا لها. ولا ذرة حنين للثمانية عشر سنة القاسية التي قُدّر لي أن أحياها. بالرغم من أنه في البداية، أي في الأيام التي تلت وفاتي مباشرة، كان من الصعب عليّ أن أرفض إحدى فطائر السمن التي كانت تحضّرها أمي أو الحلوى بالعسل أو القهوة بالتوابل. لكن هذه الاحتياجات الدنيوية أخذت تتبدد شيئا فشيئا، حتى ذكراها التي نخرتها وضعيتي الجديدة كطيف اندثرت بدورها. لو حصل أن فكرت في لحظة من لحظات الضعف في مداعبات يمّا وهي تفلي شعري وتقتل القمل، أقول في نفسي : « هيا ياشين، تهشم رأسك إلى ألف قطعة، أين يمكن للقمل أن يختبئ إذا كنت لا تتوفر على شَعَر لتعيش فيه ؟» وأخيرا، أنا سعيد لتواجدي بعيدا عن الصفيح المتموج والبرد وقنوات التصريف المبقورة وكل العفونة التي سكنت طفولتي. لن أصف لكم المكان الذي أتواجد به حاليا لأني أنا نفسي أجهله. كل ما أستطيع قوله هو أنني اختُزِلْت في كيانٍ أسمّيه وعْيا، إذا ما استعملتُ التعبير الدنيوي. يعني الحاصلة الهادئة لمجموعة من الأفكار الجلية. لا يتعلق الأمر بالأفكار الظلامية والبئيسة التي رسمت معالم حياتي القصيرة، بل بأفكار ذات وجوه لا متناهية بألوان قزحية ومُبهرة، أحيانا.

2

لفترة طويلة قبل أن تصبح الهوائيات في ملك الجميع، كانت تزدهر على أسقف مدينتنا لاقطات مبتكرة من الكساكيس نلتقط بها البرامج الأجنبية. لم تكن الصورة واضحة حقا، كانت مشفرة تقريبا، لكننا كنا نخمن محيط الأشكال الجسدية وكان الصوت لا بأس به . كنا نتابع القنوات الإسبانية والبرتغالية من أجل الكرة، الألمانية من أجل الأفلام الإباحية (من حسنات رداءة الصورة أنها تحول الحيوانية إلى إثارة)، وأخيرا القنوات العربية من أجل جرعتنا اليومية من الصراع الإسرائيلي- الفلسطيني ومساوئ الغرب آكل لحم البشر. ولأن التلفزيون الملون ظل بعيد المنال بالنسبة لأغلب رعايا جلالته، كنا نضع على الشاشة شريطا ملونا: ثلاثة أحزمة أفقية، أزرق لازوردي في الجزء العلوي، أصفر شاحب في الوسط، وأخيرا أخضر عشبي في الجزء السفلي. الخلاصة، كانت عندنا ومَضات صُوَر تحت بلاستيك متعدد الألوان، مخدد ومتسخ في الغالب. بسبب صمم والدي، كنا نرفع الصوت إلى أقصى درجة، وكنا مضطرين إلى اختيار نفس قناة الجيران كي لا تحدث فوضى. ورغم كل هذه الأشياء، كنا نجتمع كل مساء، صغارا وكبارا، حول النافذة السحرية المفتوحة بدون استحياء على غرائب العالم. لو وجد كتاب أرقام قياسية في الدار البيضاء، لحصلت يمّا على مركز مرموق : أربعة عشرة حملا في أربعة عشرة سنة، من يقول أفضل ؟ أحد عشرة حملا

ناجحا. لو لم يحصد التهاب السحايا التوأمين في عمر الثالثة، لتمكنا لوحدنا من تكوين فرقة كرة. مفخرة المدينة : نجوم سيدي مومن. حتما كل الأحياء الصفيحية حولنا كانت سترتجف. ولكان ياشين، خادمكم الذليل، حارس المرمى المرموق سدَّهَا المنيع. كنا سنشتهر ونرغم سكان الأحياء الجميلة على تخطي الحائط والقدوم للتصفيق لنا. من يدري ؟ ربما تحولت المزبلة إلى ملعب كرة حقيقي. لا أقول عشبا مثل ملاعب الفرق الكبرى، لكن على الأقل فضاء فارغا ، متخلصا من أكوام النفايات القذرة. كل الأسف للناس الذين يقتاتون منها. ليس عليهم سوى البحث عن مكان آخر للنبش فيه. ليست المزابل هي ما ينقص. لكن رغم فقرنا، كانت ثمّا تمنعنا من العمل في المزبلة. لم يكن الإفلات من حصة الشم ممكنا في المساء عند دخولنا إلى البيت. والويل لمن انبعثت منه رائحة الأزبال! كانت أمي قد صنعت سوطا علقته في مدخل البيت. أما بالنسبة لإدخال شيء إلى المنزل فقد كان حلما. كانت ثمّا تستمتع بتهشيمه في الحال. رغم أنه كانت توجد أشياء في المزبلة ! وحده حميد كان يستطيع تحدي أمي. بسبب عدم قدرته على الامتناع عن الحشيش، فقد استسلم لدفع الثمن، يوميا. ورغم حرصه على الاغتسال الكامل في السقّاية العمومية فقد كانت تنبعث منه رائحة الخطيئة. رغم أن ثمّا كانت تشبعه ضربا فإن شيئا لم يتغير. كان محتاجا إلى جرعته من الحشيش، التبغ الأصفر وورق اللف. ومن بين كل الذين كانوا ينبشون في المزبلة أستطيع أن أقول بدون ادعاء إن أخي حميد كان أمهرهم. كان يمتلك الحاسة السادسة لاكتشاف الجوهرة المفقودة. بالإضافة إلى ذكاء مبكر كانت غريزته الحيوانية تضعه دوما في وضع متميز على الآخرين. كان يعرف الأحياء التي تأتي منها شاحنات النفايات، و لم يكن يبخل على السائقين من أجل المعلومة. بهذه الطريقة كان قادرا على تحديد مجال نبشه بدل التفتيش على نحو أعمى مثل الآخرين. في الثانية عشر من العمر كان قد شغّل لحسابه طفلا من أجل تنظيف الغنائم وترقيعها وآخر من أجل بيعها في سوق الخردة بالثمن الذي يحدده مسبقا. كنت معجبا بأخي. كان يحرص على حمايتي. و يدللني

أيضا. كان قادرا على ممارسة العنف إذا تعرّض لي أحد. ذات مساء، أتذكره كما البارحة، أوْسعَ أحدَ جيراننا ضربا حتى الموت. كان هذا الأخير قد جرّني إلى ناحية المستنقعات، بعيدا عن المزبلة. ولعبنا مقلدّين أبطال الأفلام الهندية. كان مراد يستمتع بعضعضة أذني وهو يهمس فيهما كلاما غريبا. أخذ لسانه الخشن يحدث في جسدي قشعريرة. كان قد شلّ حركاتي ضاغطا على ذراعيّ إلى الأرض. من شعره المجعد كانت تنبعث رائحة زيت الزيتون. وكانت الرائحة توجد أيضا في أنفاسه لأن فمي امتلأ بها. كانت دغدغات مراد تثير ضحكي حتى أني لم أسمع خطوات حميد الذي انبعث مثل شبح. لكنه بدل أن ينضم إلينا ظل واقفا وهو متصلب كأنه عارضة. لم ألاحظ الحجر في يده لأن الظلام كان شديدا. عندما صرخ مراد ظننته لا يزال يغني. لم أعرف لماذا ضربه حميد على رأسه. سال الدم غزيرا على وجهه. خفت كثيرا وأردت أن أصرخ. لكني لم أستطع، وظل الصوت محبوسا في حلقي. عبثا فتحت فمي، لم يخرج منه شيء. راقبت حميدا وهو يشدد قبضته مرتعدا وأنا متبلد. كنت أعلم أنه لن يستثنيني. بحذائه ذي المسامير الذي حصل عليه من المزبلة سدد إلى مؤخرتي ضربة وهو ينعتني باللوطي وشتائم أخرى لا أجرؤ على ترديدها. عبثا أخبرته أننا فقط كنا نلعب ولا نضر أحدا. لكنه ظل يغلي من الغضب. كان غضبه الذي ضاعفه الظلام يبدو كأنما سكنه فيلق من العفاريت شهروا مَذاريهم ليشقوني بها. نعم، في بعض الأحيان يكون أخي جائرا. لكنه كان يحبني. كان قادرا على فعل أي شيء من أجلي. حقدت عليه لما حدث لمراد، لكن ذلك أصبح من الماضي. منذ ذلك الحين لم أقترب من المستنقعات. طبعا لم أعد قادرا على معاشرة مراد لأنه لم يَنْجُ من ضربات أخي. دفنّاه في المزبلة. كان حميد يعرف جميع أركانها. لن ينقب أحد في هذه الجهة. كانت نفايات قديمة مرت آلاف المرات في منخل الفقر. كنت أرفض تصديق أن صديقي قد مات. ثم انتهى بي الأمر إلى النسيان. لا، ليس حقا. عندما كنت أذهب لإحضار الكرة في المرات القليلة التي دخلتْ فيها شباكي، ونحن نلعب، لم أكن أستطيع منع نفسي من إلقاء نظرة على المكان

الذي يتحلل فيه صديقي. ذات مساء تجرأت وذهبت أتأكد مما إذا كان ما يزال في مكانه. عندما وصلت إلى التل الذي اهتديت إليه بفضل جثة كلب أبيض قضى عليه القيظ، حركتُ بواسطة عصا الأقدارَ حيث دفناه. كان في حُكم الوارد أنه نجا من ضرب أخي. ربما ادّعى الموت كي يتوقف أخي عن ضربه، ثم نهض مباشرة بعد ذهابنا وغادر الحي الصفيحي. ربما اختفى فقط لكي يُرعِبنا ويعاقبنا. حينئذ حفرت، في البداية بواسطة العصا. ثم وجدتُ أن استعمال يدي، كان أسهل. كانت رائحة المزبلة الاعتيادية تغطي على رائحة الجيفة. عندما رأيت أصبعا يلوح من بين الأوحال بين علبتَيْ معلبات أطلقت ساقيَّ للريح دون أن ألتفت معتقداً أن شبح مراد يتبعني. لم أتوقف سوى أمام دكان عمر، بائع الفحم، حيث كان القنديل ينشر هالة من النور على حلقة قدماء المحاربين المجتمعين للعب الدّاما. كان قلبي على وشك أن ينفجر، وكان جسمي كله يرتجف. مجرد التفكير في الأمر كان يبعث في جسمي قشعريرة، هذا إن كنتُ لا أزال أعيش في جسدي. منذ ذلك الحين قررت أن أتصرف مثل الجميع : اعتبار أن مراد هرب من الحيّ إلى المدينة كي يتدبر أمرَهُ مثلما يفعل الصبية في سنه. وأنه سيعود ذات يوم وجيوبه مليئة بالمال حتى أن والديه سينسيان هروبه، بل ويشجعانه على العودة من حيث أتى كي يواصل تدبير أمره. مع الرجوع إلى الخلف لضبط الرؤية، الآن وقد أصبحت في العالم العلوي، لم أعد حاقدا على أخي حميد. أقول إنه بطريقة أو بأخرى أسدى خدمةً لمراد، بنفس الطريقة التي أسدى بها أبو زبير خدمة لي ؛ الفارق هو أن هذا الأخير لم يضربْني بحجر. أسلحته كانت أكثرَ خطورة. لكننا سنتحدث عن هذه الأشياء في وقت آخر. لأن أبا زبير لا يزال على قيد الحياة. ولا يزال يتردد على كارانج صحبة جياع آخرين من طينتي.

3

بشعره الكستنائي وعينيه الفاتحتين، كان يتوجب على نبيل أن يُولَد في مكان آخر. لم يكن يشبهنا كثيرا. عندما يتخلص من أسماله أيام الأعياد، كان بالإمكان الجزم أنه أتى من العالم الآخر. أي أنه أحد المهاجرين إلى الجهة المعاكسة. رومي جاء من الشمال ليحتك بفقرنا، على شاكلة الهيبيين. لكنه كان فعلا من عندنا. كبرنا على نفس الروث، ولعبنا في نفس الوحل. ورث جماله عن أمه، طامو، وهي مومس كرست مَفاتِنها لعاطلي سيدي مومن ؛ باسيوناريا الجنس الرخيص، اضطلعت بالقيام بمهمة الخدمة العمومية، وكانت تعرض أثمانا شبه شيوعية. كانت طامو تتمتع باحترام خاص، سواء عندنا أو في الأحياء الصفيحية المحاذية. يؤكد البعض أنه كان بوسعها أن تشتغل في أي مكان ؛ حتى في الأحياء الجميلة، لو كلفت نفسها عناء التأنق أكثر. بأسنانها الذهبية، كانت طلعتها المضيئة تطلق سحرا متوحشا. وكانت الثمانون كيلوغراما من اللحم الغض التي تحشو جلابيبها المصنوعة من الساتان تسحر الرجال في طريقها. كانت تمارس أيضا حرفة الغناء في المناسبات، حفلات الزواج والختان والسبوع. لهذا فرغم حذرهن، كانت نسوة المدينة يضطرن إلى اللجوء إلى خدماتها. لم يكن الحقد من طبع طامو، وكانت تقبل الظهور حتى في الأكواخ الأكثر عدائية. وحدها القادرة على إلهاب الأمسيات،

كانت تندفع جسدا وروحا وسط المدعوين، تحمل طبلها تحت الإبط وتهز مؤخرتها التي تبدو وكأنها موصولة بسلك كهربائي؛ كانت تلعب أيضا بحدقتيها مقلدة الراقصات الهنديات، مسقطة الضحية تلو الأخرى، في حين يصدح صوتها الجهوري عبر مكبرات الصوت الموضوعة على السقف ناشرا السعادة في كل مخيمات الجوار.

كان نبيل يعيش مع والدته في كوخ منعزل، ناحية السقّاية. وكان يمضي أيامه في الخارج لأن أمه تستقبل زبائنها في البيت. لذا كان أول من يصل إلى المزبلة، ولا ينصرف منها إلا عند حلول الظلام. كان يشتغل لحساب أخي حميد، الذي كان يعامله بطريقة لائقة. كان أيضا يسهر على حمايته. الويل لمن تجرأ على نعته بابن القحبة ! كان حميد الذي يتقن تسديد اللكمات، يعاقب الجاني في الحال. هكذا أصبحنا، بعد اختفاء مراد، لا نفترق أنا ونبيل. كنت أساعده أحيانا في جمع العظام وأجزاء الزجاج والقطع المعدنية المختلفة. كنت ضليعا في اكتشاف قرون الكباش المطلوبة في السوق من أجل صناعة الأمشاط. وكنت أتكلف بإزاحة المطّاط عن الخيوط الكهربائية للحصول على النحاس. كنت أستطيع الحصول على عشر كرات في اليوم عندما يُعيرُني سكّينه. كان على نبيل أن يملأ ثلاثة أكياس من خيوط القنب يقدمها له أخي في الصباح. كان يؤدي مهمته بجدارة ؛ سواء أمطرت السماء، أو هبت الرياح، كانت الأكياس جاهزة عند الغروب وهي مربوطة كما يجب. ثم تأتي عربة خشبية تجرها بغال هزيلة يقودها عجوز أعور لتجمعها. لم يكن حميد يكلف نفسه عناء مراقبة سير العمل. كان يولي نبيل ثقته، ويقول إنه ليس غشّاشا على عكس بقية الأولاد المزعجين الذين يعيشون في هناء ويمضون وقتهم في شم السيلكون. رغم أن أجرة نبيل كانت تفوق الآخرين، إلا أن يده المخرومة لم تكن تسمح له بالتوفير. غالبا ما كان يدعوني إلى مشاركته علبة سردين وخبز شعير وقنينة كوكاكولا كبيرة. كنا نجلس في مأوى شيده بواسطة الألواح والكرتون، ونتلذذ بالوليمة ونحن نتجاذب

أطراف الحديث عن المدينة التي سنزورها في يوم من الأيام. كانت أمه قد وصفتها له بفيض من التفاصيل الغريبة. لا أظن أنها كانت تنسج قصصا خيالية. المرة الوحيدة التي استطعتُ فيها زيارتها كانت الأخيرة. لذا فكل شيء مشوش في ذهني.

كان نبيل يحلم بتحويل ملجئه إلى بيت حقيقي. كان التصميم في رأسه: غرفتان وركن خاص بالمطبخ وصالون. بالنسبة للحمام، سيفعل مثل الجميع، أي قضاء الحاجة في المزبلة. لكن المشروع ظل لحد الساعة صعب التحقيق. كلما وجد صفيحة متموجة أو عارضة صالحة سرقت منه. لذا وعدتُ بمساعدته في اليوم الذي سيفكر فيه جديا ببداية الأشغال. نفس الشيء قرره أخي حميد: «يتوجب على رجال الأعمال أن يُعاون بعضُهُم بعضا.» ثم اقترح عليه كوخا مهجورا حيث يستطيع وضع معداته : بلاستيك، أغصان أشجار، آجر، عوارض، كل ما يمكن أن يساعدنا على تشييد سقف واق من الرطوبة وزوابع الرياح وباقي مظاهر الرداءة الجوية. كان نبيل يحلم. كان يقول إنه بإمكاني موافاته عندما أحس أني أرغب في التحليق بجناحي. سيكون عندنا موقد وطنجرة جميلة نحضر فيها ألذ الطواجين. كانت مسألة وقت. بتضافر الجهود والمثابرة سنحقق ذلك. في تلك الفترة بدأت أحس بالضيق في البيت. كنا، نحن الستة، ننام في غرفة بمقاس قبر. كنت لا أتحمل الشخير ولا كوكتيل الروائح التي يصعب تحديدها. روائح الأحذية والعرق والسراويل الداخلية ومسحوق د.د.ت (مبيد الحشرات) الذي كانت يمّا ترشه كل مساء تحت حصيرة الرافية التي تقوم مقام السرير. نعم، أخذت أحلم بغرفة منفردة وسرير حقيقي بمخدة ونوابض لا تستطيع العقارب تسلقها، ولا أية حشرة كيفما كان نوعها. ربما فقط القمل الذي لم يكن يزعجني أبدا. كنت أفضل تحمله على تحمل مبيد الحشرات الخانق. لن أستعمل النفثالين في غرفتي. لا أفهم لماذا تتوجس يمّا من العث، نملك القليل من الصوف، القليل من الثياب، حتى أن مسكننا الحقير كان آخر

مكان يمكن أن تختبئ فيه هذه الحشرات. لكنها يمّا، المرأة الأكثر نظافة واحتياطا التي قُدّر لي أن ألتقي. كانت تبدأ كل صباح بإيقاظ أحدنا ليجلب الماء من السقّاية. كانت تستثني الصغار. ذهاب وإياب متكرر إلى أن تمتلئ الجرة الكبيرة. بعدها ترش يمّا الباحة الصغيرة في حربها اليومية مع الغبار. ثم تسقي أقداح الحبق الموضوعة عند مدخل الغرف لتطرد البعوض. ثم أخيرا، تملأ الغلاية وتسخنها من أجل الوضوء وتشرع في تحضير الفطور الذي نتناوله مجتمعين. كانت تحب مراقبتنا ونحن نأكل. مهتمة بكل واحد منا مثل دجاجة تسهر على كتاكيتها. كنا رجالها. تسعة شبان وأبوهم الذي قرر أن يكون عجوزا قبل الأوان، متفرغا في ركنه وهو دائم التسبيح على سبحة الكهرمان. كان يصلي جالسا مدعيا عدم استطاعته النهوض. عامل المقالع السابق أصبح هزيلا جدا وناشفا جدا مثل الأرض الخراب التي كانت في الماضي منطقة صناعية والتي لم يغادرها أبدا. كانت يمّا تقدم له الحساء الأبيض وترتب المساند خلف ظهره دون أن تقول شيئا. ثم تستعرض ثيابنا مثل عريف مع فرقته، قميص ينقصه زر، خف أو سترة مثقوبة. ثم تنهال الاحتجاجات : «هل تريدون أن تفضحوني أمام الجيران!» أو «هيا، اخلع هذا، على الفور، إني لم أمُتْ بعد!» ثم تأخذ علبة اللوازم : «ياشين، أنت صاحب أجمل عينين، تعال أدْخِل الخيط في سم الخياط». كنت سعيدا جدا بامتلاك شيء أحسن من الآخرين في هذا البيت. كنت أرطب الخيط بين شفتي وأدخله دفعة واحدة في ثقب الإبرة. كانت يمّا تبتسم لي، وكنت أحب أن أراها تبتسم.

في بعض الأيام، كان نبيل يصل إلى بيتنا مع مطلع الفجر. بمجرد ما أن تسمعه يمّا وهو يُصفر (طريقته لمناداتي) كانت تغمس كسرة خبز ساخن في صحن زيت الزيتون وتقول لي : «خذ، قدّمها لصديقك». بسحنة جشعة، كان نبيل يقبلها عن طيب خاطر. كان يطلب مني كأس ماء ليشلل فمه، لأن أسناننا في سيدي مومن كانت تطقطق باستمرار بسبب الغبار الدائم. ثم يلتهم قطعة الخبز بشهية قبل أن ينطلق إلى العمل. لم يكن

نبيل أفقر منا، أبدا. لكن أمه الفنانة كان من عادتها التكاسل في السرير. كانت تشتغل لوقت متأخر ولا تستطيع الاستيقاظ باكرا. ولكي يتفادى إيقاظها كان يخرج من الكوخ على أطراف أصابعه مثل لص. لكنني كنت أتساءل كيف يمكن للمرء أن ينام مع حركة شاحنات النفايات الدؤوبة. لكننا كنا نعتاد على كل شيء في مدينتنا، حتى على رائحة العفونة والموت التي أصبحت مألوفة ولاصقة بجلد كل واحد منا. لم نعد نشمها. وحتى لو حصل أن اختفت هذه الرائحة بقدرة قادر، فإن سيدي مومن سيفتقد رُوحَها. سيبدو الهواء خاليا من النكهة وبلا طعم؛ ستختفي القطط والكلاب من المكان؛ تماما مثل أسراب النوارس التي احتلت المكان، مُفضّلة جوّد الخانق الملوث على الجو البحري، وحفّاري الظل على صيادي أعالي البحر. حتى كبار السن سيحسون بالملل إذا غاب الذباب الذي يحرصون على قتله والبعوض وكل شيء. هل يمكنك أن تتخيل، سيدي مومن، عارٍ كليا! من دون لياليه المجنونة في المزبلة. من دون نيران مخيمها حيث يُطلق موسيقيو اللحظة، وهم يضربون على آلات الماندولين، التي صنعت من صفائح البنزين، أغانٍ حزينةً في السماء المعطرة بالحشيش؛ وحقول أكياس البلاستيك التي تحركها الرياح، بينما يُحوّل الظلام المتواطئ كثبان الرمال إلى شواطئ لا متناهية...

ماذا؟ هل أهذي! ثم ماذا؟ ما هو الشيء الآخر الذي أستطيع أن أفعله، الآن، والوحدة تنخرني، وأنا أحوم مثل شبح غريب حول مملكة ذكريات طفولتي. لست أخجل من القول إنه يحصل لي أن أكون سعيدا في هذا الخراب البشع، على نفايات هذا المكان القذر الملعون، نعم، كنتُ سعيدا في سيدي مومن، بلدي.

4

من بين جميع نجوم سيدي مومن، وحده فؤاد توفرت له فرصة ولوج المدرسة التي توجد على بعد بضع كيلومترات من الأكواخ . كان فؤاد يقطن بملحقة المسجد حيث يقوم والده بعدة مهام: مؤذن، حارس، إمام، وعدة أشغال أخرى مقرفة، لكن تُدرّ أموالا، مثل غسل الأموات وطرد الجن من المسكونين أو المفترض أنهم كذلك وتلاوة القرآن في المقبرة. لم يكن فؤاد يحلم سوى بشيء واحد، وهو أن يشاركنا لعب الكرة، الشيء الذي كان ممنوعا عليه. على الرغم من أنه وُلِد هدّافا، وقادرا لوحده على ترجيح الكفة خلال أي دوريّ مهم. كان يلتحق بالفريق كلما استطاع الإفلات من براثن والده ليشاركنا مقابلة لا تنسى. وكان حريصا على مراقبة السماء، لأنه سبق أن ضُبط وسط المزبلة : رآه المؤذن من فوق مئذنته بينما كنا نخوض في الوحل خلف الكرة. ما زلت أتذكره وهو على حافة الإغماء عندما صدح مُكبّر الصوت المختل باسمه. كان صوت والده عصيا على التقليد. وكان من المستحيل أن يتشابه علينا لأننا كنا نسمعه خمس مرات في اليوم. صوت حادّ، متملق وزائف، يخلق في المرء الرغبة في فعل أي شيء، عدا النهوض من أجل إقامة الصلاة. أظن أن فؤاد بال في سرواله حينها لأنه كان متأكدا من الضرب المبرح الذي ينتظره. على كل حال، بعد هذه الحادثة غاب فؤاد فترة طويلة عن

المشهد. منع تام من الاقتراب منا. منع أيضا من مغادرة البيت في غير أوقات الدراسة. في بعض الأحيان، كنا نراه صباحا يحمل محفظته على ظهره، يجره عمّه كأنه محكومٌ ذاهب إلى المقصلة. كان ينظر إلينا بطريقة جانبية، ويرسل إشارات لتقصي نتائج المقابلات التي لم يلعبها. عندما كان العم يضبطه كانت لطمة منتقمة تسقط على وجهه كالصاعقة. كان يؤنبه وينعتنا بأقبح النعوت. في الحالات العادية، كان يمكن لحجر أن ينطلق في اتجاه هذا الأقرع. أخي حميد كان بارعا في استعمال المقلاع. لكنه لم يكن يفعل، متفاديا التسبب لفؤاد في إزعاج إضافي.

هكذا مرت عدة شهور وبدت نجوم سيدي مومن باهتة بعض الشيء. واصَلنا مقابلاتنا أيام الآحاد، وانهمك كل واحد منا في أشغاله، بقية أيام الأسبوع. التحق نبيل بالفريق وكان بلاؤه حسنا. كان قد انتهى من بناء كوخه الذي بدا أكثر تواضعا من الكوخ الذي تخيله في البداية، لكننا اعتدنا عليه لأنه أصبح مركز القيادة بالنسبة لنا. النجوم جميعها كانت تجتمع فيه لتناقش وتضع استراتيجيات اللعب. كان نبيل سعيدا لمغادرته البيت العائلي رغم أن أمه استمرت في زيارته عدة مرات في الأسبوع. كانت تأتي بقفة مليئة بالأكل الذي كنا نتلذذ به. لم تكن تظلّ فترة طويلة لعلمها بأن وجودها يزعجه خصوصا في حضورنا. من علامات نُبل أخي حميد أن منَحَنا قنديلا ومُشغّل كاسيت وجده في حالة شبه جيدة. أصلحنا مشغل الكاسيت بحفنة دراهم، وقمنا بتنظيفه ثم وضعناه على صندوق وسط الغرفة. كم من أمسية أمضيناها في الكوخ متكورين مع بعضنا البعض ونحن نستمع لأغاني الأطلس المتوسط وإيقاعات ناس الغيوان الصاخبة... كم من سيجارة دخناها فيه، وكم من قصة غريبة حلمنا بها ...

ذات يوم أحد جميل من شهر يوليو، حدث شيء أسعدنا، رأينا فؤادا مرتديا اللباس الرياضي، صدْر عار وحذاء بلاستيكي، كان يحرك ذراعيه النحيفتين فوق تلّ من النفايات؛ عاد دون أن يقدم توضيحا واحتل مكانه

في مقدمة الدفاع الذي لم يكن أحد قادرا على منافسته عليه. بعد أسبوع فقط عرفنا المصائب التي حلت بوالده. الشلل الذي أصابه شلّ نصفه الأيسر واجتاح وجهه حارما إياه من الكلام ؛ الشيء الذي كان مؤسفا بالنسبة لمؤذن. احتل العم مكانه في الحال. ولأنه الذكر البكر، أصبح فؤاد كبير العائلة. لم يكن قد أتم الرابعة عشر من العمر. صفة الكبير وفرت له امتيازات كبيرة : توقف عن الدراسة، وأوصى بصناعة طبق عرض مزود بعجلات ليبيع عليه حلويات تصنعها أمه وأخته غزلان. أصبح بالغا، دفعة واحدة، رغم أن جسمه الضعيف لم يصاحب التحول. بالكاد كان في طول طفل في الثانية عشر، ساقاه مقوستان ونحيفتان، وجهه البارز التقاطيع التهمته سمات زنجية الشكل، كان يجر هيئة كئيبة لصيقة بالذين وُلِدوا ليعيشوا تعساء. ورغم هذا، فلم نكن نرى سواه في الملعب. كنا فخورين لوجوده ضمن لاعبينا. كنا، أنا وهو دعامتي الفريق اللتين لا تمسان؛ موهبتانا المجتمعتان كانتا تبرران الاسم المتلألئ الذي يحمله : نجوم سيدي مومن .

كان منافسونا كُثُرا. فلكل حي صفيحي فريقه. كان مخيم «الشيشان» أُسُودُه ؛ ولـ «تقلية» (الكرش) عُقبانُهُ ولـ«توما»، على اسم فرنسية امتلكت مقهى في المكان، صواريخه (من نوع توماهوك) ؛ اللاعبون المرعبون كانوا هم لاعبي قرية الحجارة، أفاعي دوار لَحْجَر، الوحيدون الذين يمكنهم ادعاء مجاراتنا. كنا نلتقي أيام الآحاد في المزبلة من أجل مباريات أسطورية تنتهي عادة بخصومات المصارعين. مشاجرات تنعدم فيها الشفقة نعود منها مصابين بتشوهات. لكننا لم نكن نستطيع الامتناع عن العودة في الأسبوع الموالي. كنا في حاجة إلى أن نتواجه، أن نضرب الكرة أو وجه أحد ما. كان هذا الشيء ينفس عنا. وللحقيقة، كان أخي حميد يتواجد في المحيط، باستمرار. كان يسهر على حمايتي بسلسلة دراجات يستعملها عوضا عن الحزام ويسحبها في الحال كلما حدثت مشكلة. عندما كان الأمر يسوء، كنت أحتمي خلفه ولا يصيبني سوء ؛

كنت أخرج سالما، في أسوء الحالات بعض الخدوش أو عين متورمة. كدس حميد الندوب بسبب لعبي الذي كان يثير الحسد. قدرتي على إيقاف كرات مستحيلة كانت تمنحني تصفيقات حارة. كان العديد من الثعابين والعقبان والتوماهوك يريدون موتي. بالنسبة لفؤاد، لم يكن أحد يسهر على حمايته، كان عليه أن يعول على ساقيه. غالبا ما كان المعتدي يمسكه ويوسعه ضربا. على غرار حميد، كان فؤاد يراكم عددا مدهشا من الندوب. لكن الشيء الذي كان يرعبه أكثر، هو المرور عند الحلاق الذي كان يتحول إلى مُجبِّر عظام. شخص دنيء يُجبِّر العظام بعنف لا مثيل له. تلك كانت طريقته لمعاقبتنا. في أغلب الحالات كنا نفقد الوعي ساعة العلاج. كنا نستطيع الانتقام من هذا الممسوس، لكننا كنا نعرف أنه عاجلا أو آجلا سنسقط بين يديه المرعبتين. بالرغم من ذلك، ذات يوم التهمت النيران دكانه بالكامل ؛ لم يتمّ أبدا الإمساك بالجاني. وعلى كل فاحتراقُ كوخٍ في سيدي مومن لم يكن نهاية العالم. يعاد بناءه في الحال ويتطوع الجيران بمنح الضحية الحصائر والأغطية والملابس وبعض أواني المطبخ. ثم تُعاود الحياة سيرها الطبيعي. الحريق المتعمّد الوحيد الذي حالفني الحظ لحضوره من البداية إلى النهاية كان حريق مركز الشرطة. كان قرارا اتُّخِذ بالإجماع بعد أن كاد رجال الشرطة أن يُجْهزوا على أحد بائعي المخدرات. أحضر الشبان قنينات البنزين وأضرموا النار في البناية. كانوا حانقين على الـ «دوبرمان»، وهو مفتش فاسد، وحش قذر نزل على مزبلتنا ليسيء معاملة الناس ويمتص دمهم. كان هذا النذل يسود كطاغية على موزعي الحشيش الصغار وباقي اللصوص الذين يعيشون في سيدي مومن. لم تكن أي شاحنة صغيرة محملة بالحشيش أو بالبضائع المهربة تتخطى السور دون أن يفرض عليها ضريبة. كان يتوفر أيضا على شبكة فعّالة من الوشاة تتيح له أن يكون على علم بكل شيء. كان يعرف أحشاء الأكواخ، ويتوفر على ملفات مفصلة حول كل واحد منا. إذا حدث أن اشتكى أحدٌ ما، رمى في وجه بِجُنَح أقربائه، لأن أغلب الناس

في سيدي مومن يخفون أسرارا. مع مرور السنين، ازداد حقد الناس، وتضاعف حتى أصبح مثل مياه نهر جارف فاض ذاك المساء. هكذا، في اندفاع غاضب، اشتعل الشارع كأنه مخزن بارود. أحضر ابن عمر بائع الفحم البنزين ثم توجهت الجموع وعلى رأسها أخي حميد نحو المركز. كان المنظر شبيها بموكب تُتوَّجُهُ المشاعل ينبثق من المزبلة وهو يردد تهديدات قاتلة ويستشيط غضبا ضد الـ «دوبرمان». ومن حسن حظ هذا الوغد أنه كان في مكان آخر ساعة الحريق الذي رقصنا حوله مثل ممسوسين في حالة الجَذْبَة. كان البعض يرمون الحجارة، وآخرون يطلقون سبابا بذيئا، بينما أخذ آخرون يبولون في اتجاه النيران. لم نتعرض للحارس لأنه كان من الجوار. لكننا عريناه وعلقنا بذلته على عود رفعناه كأحد أعلام الموت ونحن نطلق صرخات انتصار، ثم رميناه في النار. لو كان الـ«دوبرمان» حاضرا لقبضنا عليه وعاقبناه. لَبَقَرْنا بطنه النتن. ولكُنّا قد كسرنا فكّيه اللذين يطلقان السباب، ولكُنّا نفَّسْنا عن الغضب الذي تراكَم لعدة عقود. بعد الذي حصل، كانت النتيجة مؤكدة لأننا لم نر وجه هذا الفرد المشؤوم. ولا زيا رسميا بصفة عامة. لم يجدد بناء مركز الشرطة، ولم يشتك أحد من ذلك. أخذت الخلافات بين الناس تحل بوساطة كبار السن، أو بالضرب في المزبلة. لكن عموما، واصلت الحياة في سيدي مومن سيرها بهدوء.

5

خلافا للمظاهر، كان علي أبيض اللون. وباعتباره ابنا لبائع فحم، لم يكن يستطيع التخلص من السحنة السمراء القاتمة التي أصبحت تميّزه. اعتاد عليها، كما اعتاد على كُنيَّة «عَزّي» التي ألصقناها به منذ صغره جورا، لأنه لم يكن أسودا إلا في فترات متقطعة. أيام الجمعة عند خروجه من الحمام كان يستعيد لونه الطبيعي العابر الذي أصبح يخجله لأن أغلب الناس لم يكونوا يتعرفون عليه. من بين جميع أصدقائي، كان عليّ من تُفضّله يمًا ؛ السبب ! نادرا ما جاء إلى البيت بيدين فارغتين : كان دائما يُحضر معه كيسا من الفحم يسرقه ويدعي أنه هدية من والده. كذبة كبيرة. كنا نعرف عمر بائع الفحم، وكان مستحيلا أن يقدم هذا الأخير شيئا لإنسان. كان يمضي حياته في دكانه، معلقا حقيبته ضاما إياها بذراعه، مغطيا ثروته تحت إبطه المبتل. بالكاد كنا نلاحظ وجوده في الدكان لأننا لم نكن نميزه عن كومة الفحم التي كان يسود عليها كأنه ملك نار حقيقي، كما تشهد بذلك كنيته. ولا تُعوّلوا عليه كي يضيف قطعة إلى الميزان كما يفعل التجار عادة. كان عمر يحرص على توازن كفتي الميزان كأنه يبيع قطع الذهب. لم يكن الناس يُكنُّونَ له الضغينة وكان الكثيرون يضحكون من ذلك. فضلا عن ذلك، لم يكونوا يملكون خيارا آخر لأن جلالته كان بائع الفحم الوحيد في سيدي مومن. كان ابنه

علي جُرحَهُ : جرح غائر يسبه صباح مساء. في نظره، كان سلة مخرومة لا يسعى سوى لتبديد الثروة العائلية و لم يكن له من اهتمام سوى الجري في الوحل خلف الكرة. و لم يكن يُفَوِّتُ فرصة دون أن يكرر عليه ذلك. لكن علي لم يكن يعاني من ذلك كثيرا لأنه، مع الوقت، اعتاد على بلاغة والده؛ لم يعد يسمعه يشتم ولا يتحسر على حظه العاثر. كان علي يكد في صمت من الفجر إلى الغروب، يحمل أكياسا تزن عشرين كيلوغراما، يحضر الأكل من البيت، يغسل الصحون، يرش مدخل الدكان بالماء، ويهتم بعدة أشياء متعبة. بمجرد أن يتوقف من أجل أن يستريح قليلا إلاّ وكان عليه أن ينهض من أجل القيام بشيء آخر. اللحظات الوحيدة التي كان يستريح فيها كانت أوقات الصلاة، عندما يذهب والده إلى المسجد؛ نصف ساعة يستغلها بسرعة ليضمن مصروفه اليومي. لكن ذلك لم يكن مضمونا كل يوم. عموما كان يجمع خمسة دراهم تضمن له وضعية خاصة في المجموعة. باستثناء أخي حميد، كان علي أغنى واحد فينا. وأكرمنا أيضا لأن مساهماته في صندوق الفريق كانت تتخطى مساهماتنا من بعيد. لم يكن من وسيلة لعمر لمراقبة ابنه سوى مراقبة مقتنيات المارة الذين يلتقي بهم في طريقه. إذا حدث أن رأى فحما في إحدى السِّلال سارع لمراجعة الحسابات. كان الوضع يتحول إلى مأساة إذا أحس بأدنى محاولة سرقة، إذ يمسك ذيل العجل المُضفر، ويبلله في دلو ماء ويفرقعه ليضاعف من رعب علي الذي يتكوم وهو يحمي وجهه، كان عمر يضرب بكل قواه حتى يدميه. بسبب هذا، كان علي يحترس كثيرا قبل الإقدام على أي عملية سرقة، كأن يتأكد مثلا من أن الزبون سيذهب في الجهة المعاكسة لجهة المسجد، أو يبيع الفحم بنصف الثمن لأحد المتواطئين. وحتى لو لم يحضر الزبائن في غيابه، كان عمر يمنحه علقة ساخنة... تحسبا لما يكون قد وقع ! هذا الأمر أيضا اعتاد عليه علي، وطوّر تقنية مدهشة تُمكّنه من تفادي اللطمات وهو يدّعي أنه يتلقاها، فقد كان يقرأ مسار اليد، ويُدخِل رأسه بين كتفيه في اللحظة الحاسمة

ويطلق صرخات مرتفعة، شبيهة بعواء كلب داس أحدٌ على ذَنَبه. وأخيرا، ومثل الكثيرين منا، كان قد ألِف الضرب. أصبح جزءا من حياته مثل المرارة والذل، مثل البشاعة التي كانت تحيط بنا من كل جانب، مثل هذا القَدَر الذي سلَّمَنا، مكتوفي الأيدي، إلى هذه الخرابات التي لا اسم لها.

عندما كان يأتي إلى بيتنا، كان علي يصر على أن يكون هو من يُوقد النار. ومثل ساحر حقيقي، كان يضع خرقة مشبعة بالزيت تحت كومة من الفحم، وفي لمحة يصبح الموقد جاهزا. كانت يمّا تثني عليه وتقول لي : «تعلم من رفيقك، انظر كم هو موهوب !» وكانت تقدم لنا الشاي بالنعناع وفطائر السمن التي كنا نحبها كثيرا. وعلى الرغم من أنها كانت تعطي الانطباع بأنها قاسية، وصعبة المِراس أحيانا، كانت يمّا تملك قلبا كبيرا. كان يبدو أنها تتحمل لوحدها كل ضيق سيدي مومن. لم تبخل أبدا بالطعام على صديق جائع. كانت تعثر على شيء من أجله، إما قطعة خبز مغمسة في بيصارة الفول، أو قدح حريرة، أو بيضة مسلوقة، وأخيرا كل ما تجده أمامها.

كانت يمّا تظهر كثيرا من الحنان تُجَاه علي، وهو ما كان يثير غيرتي، خاصة عندما أضبطها تمسد شعره أو تهمس كلاما في أذنه. كانت تستمتع بمناداته باسم غير اسمه، وهو يوسف. كان وجهه يحمر حينئذ ويسارع في إخفاء عينيه المدمعتين محنيا رأسه. كنت أنظر إليه متبلدا دون أن أفهم شيئا من تواطئهما. تطلب الأمر وقتا طويلا كي أعرف السر. حكاية فظيعة انفرط لها قلب يمّا. أخبرتني بها ذات صباح لتواسيني بعد مشاجرة حدثت بيني وبين عليّ. كنت قد دخلت إلى البيت وتمددت على حصيرة دون أن أقول شيئا. كانت يمّا جالسة مبعدة ساقيها واضعة بينهما مائدة صغيرة تنقي عليها العدس. رمقتني بنظرة واحدة كانت كافية لمعرفة حالتي المزاجية.

– تعالَ يا صغيري، أحْضر عينيك، لم أعد قادرة على رؤية هذه الأحجار اللعينة.

جلست قربها أساعدها في تنقية العدس.

– أراك حزينا، ماذا جرى لك ؟

– لا شيء.

– ألن تخبر أمك العجوز بما يزعجك ؟

– لا شيء مهم، تشاجرت مع علي.

– من أجل شيء تافه، على ما أظن !

لزمتُ الصمت. أخذت يمّا وقتا كي تستطرد.

– هو ولد طيب. لا يبدو أنه سيء.

ثم قالت، بصوت منخفض، وهي تركز اهتمامها على حبات العدس، وكأنها تخاف أن تسمعها أذن متطفلة :

– يجب أن تكون لطيفا معه. هذا الولد حظّه عاثر.

نظرتُ إليها مندهشا.

– وهل تعرفين في الحي الكثير ممن لهم حظّ وافر؟

ابتسمتُ.

– لكن هو أقل من الآخرين. سأقص عليك حكايته، لكن قبل ذلك يجب أن تعدني ألا تقصها على أحد... مع أنها ليست سرا، فالكل يعرفها !

– أنا، لا أعرفها.

– في الحقيقة، علي ليس اسم صديقك.

– إنك لا تُعلّميني شيئا يا يمّا. نُكنّيه عزّي.

– اسمعني جيدا وتوقف عن مقاطعتي. الاسم الذي أطلق على صديقك عند تسميته هو يوسف. أعرف ذلك لأني حضرت السُّبُوع. أعرف والدته التي ألتقي بها في الحمام باستمرار. علي هو اسم شقيقه.

– أنت مخطئة يمّا، علي ليس له أخ.

– حقا لم يعد له أخ. كان علي طفلا ظريفا. رأيته يكبر كما أراك.

– لا أفهم.

– حكاية مأساوية يا بني، لا يمكن أن يتمناها المرء حتى لعدوه.

تنحنحت يمّا وتنهدت ثم واصلت:

– كان القيظ ؛ صيف كما لم نر مثله من قبل. لم يكن الناس قادرين على البقاء في مساكنهم بسبب أسقُف الزنك التي كانت تتواطأ مع الشمس وتؤجج السعير. لم يكن الحال أفضل في الخارج. لم تكن رياح الشركي تتركنا نتنفس لأنها كانت تحمل سحابا من الغبار والأزبال. كانت السماء الثقيلة والمنخفضة حمراء اللون، بشكل مستمر؛ الطقس المرعب جعل الإحساس بقرب نهاية العالم يحوم على سيدي مومن. كان يوسف قد جَرَّ شقيقه إلى النهر الموجود أسفل الحي. لم يكن قد نشف بعد في تلك الفترة. ورغم أن قنوات التصريف في المدينة كانت تلوثه، فقد كان هذا المجرى المائي يجذب عددا لا بأس به من الأولاد الأشقياء الذين يأتون من الأحياء البعيدة للانتعاش. شاطئ حقيقي، يا صغيري. كنت أصطحب معي في بعض الأحيان إخوتك الكبار. كانوا يستمتعون كثيرا، ويسبحون من الصباح إلى المساء. كنت أحضر ساندويتشات التونة بالطماطم وننطلق باكرا. لم تكن الأشجار مخروقة، وكانت العصافير تأتي أسرابا لتنقر أوراقها الخضراء. كنت أحب مراقبة والدك ممددا على العشب، ومذياعه لاصق بأذنه، يتفاعل مع صياح المعلقين الرياضيين المندفع. كان يضحكني لأنه كان ينط مثل جدْي. عندما كان أحد لاعبي الوداد يسجل هدفا، كان ينهض ويؤدي رقصة شيطانية ثم يرتمي علي ويضمني بقوة. كنت أحتج طبعا : «ماذا تفعل ! يا مجدول، الناس ينظرون إلينا !» لكنه لم يكن يعير ذلك أهمية. كان شبيها بطفل...

سكتت يمّا، حالمةً. نسيت العدس والحكاية التي يفترض أنها تقصها علي. رأيت هالة نور على وجهها. لم أصدر صوتا متفاديا أن أقطع استرسالها في الأحلام. كان يتعذر علي تصور والدي منتميا إلى عالم الأحياء و أمي عاشقة. بعد وقت قليل، تمالكَتْ نفسها.

– كان أخوك حميد مَلِكُ الشقاوة، فوق طاقة الاحتمال وغير قابل للإصلاح. لذا لم تكن عيناي تغفلان عنه. فاجأته عدة مرات يقفز من فوق الجسر. لم يكن الماء عميقا وكان من الممكن أن يرتطم بإحدى الصخور. عبثا كنت أصيح وأهدد بذراعي، كان يتجاهلني. لم يكن الجني يفعل سوى ما يحلو له. كان والدك يحتج ويطلب مني أن أدع الأولاد وشأنهم، لكني لم أكن أستطيع أن أرخي قبضتي. عندما أفكر في الأمر، أقول إنه لم يكن على يوسف أن يصحب شقيقه إلى النهر. كان الخطر يحدق من كل جانب. لم يكن علي قد أكمل الرابعة وكان يوسف يكبره قليلا. لم يكن عمر الفحّام يحلف سوى بابنه الصغير، وكان يعامله مثل أمير رغم بخله الشديد. لم يكن يدخل لبيته في المساء دون أن يحضر له قطعة حلوى أو قرطاس حمص أو لُب. كان يوسف يشعر بالغيرة لكنه كان يحب شقيقه. كان سيمنعه حتما من القفز من فوق الجسر لو كان يعرف أنه سيختفي للأبد. لم يكن عمر الفحام عادلا عندما وصفه بالقاتل. العديد من الصبية كانوا يقفزون من فوق الجسر. رأيتهم بأم عيني. كانوا يخرجون بعيدا ببعض الأمتار سالمين. لكن لم يكن نفس حظ ذلك الشقي علي الذي أراد أن يُظهر جرأته فقفز الأول وهو يصيح. ولم يظهر. بلع النهر صراخه وضحكاته الطفولية. إلى الأبد. رغم أن الماء لم يكن عميقا. ربما كان هائجا ذلك اليوم لكن علي كان يتقن السباحة. لم تكن المرة الأولى التي يتبع فيها أخاه إلى النهر. كيف استطاع عمر الفحام الذي كان قد خسر للتو ابنا أن يدمر ابنه الآخر بكلمات ؟ الـ «قاتل !» كان يصيح في كل مكان. تحدث العديد من الشهود عن حادث، وليس عن جريمة. ربما هشمت صخرة رأس الصغير وقام التيار بالباقي. في البداية تصور يوسف الأمر مزحة. كان علي يستمتع بإرعابه. ثم قفز بدوره، والخوف يسكن أحشاءه، خوف شديد، لم يشعر به من قبل. بحث عن أخيه في كل مكان. كان يُدخل ويُخرج رأسه من الماء العكر وهو يفتح عينيه. عبثا. بقي في الماء لعدة ساعات يرتعد ويرتعش. لكن

الجسد الصغير كان قد اختفى كأنما ابتلعه الصلصال. صلصال جائع وشرير تغذى بجسد الولد الضاحك. انضم بعض الرعاة إلى العملية ومشطوا النهر من ضفة لأخرى. ظل الصغير مفقودا، كأنه قد تَبخر. على كل حال، تطلب الأمر عدة أيام قبل أن يجد رجال سيدي مومن الجثة على بعد فرسخ من مكان الحادث. كانت مُشوَّهة، مُتحلِّلة تقريبا ؛ حفنة طين، صاحت أمه وهي تتمرغ في التراب وتخدش وجهها. أعيدوا لي الطين، كانت تصيح بصوت يثير القشعريرة. أمّا يوسف، فقد فر خلال أسبوع لأنه يعرف عنف والده. ضل يتسكع هنا وهناك، ناحية «الشيشان» و«توما»، غير قادر على مواجهة الرعب الذي كان حتميا. فضلا عن ذلك، كان قد نُسِيَ لأن المنزل كان مقلوبا. كان الناس يأتون صباح مساء. بدون تدخل الإمام، كان هروبه سيدوم للأبد. كان الرجل الذي يحترمه الجميع هو الذي ذهب للبحث عن يوسف في الجانب الآخر من المزبلة، وهو يعده برحمة والده. هو أيضا منْ جعل الفحام يُقسم، واضعا يده على المصحف، بأن يعفي ابنه من العقاب الذي يستحقه. فعلا...

قطعت أمي استرسالها لأن البكاء خَنقَها. أنا أيضا أحسست برغبة في البكاء، لكنني لم أفعل.

– أخبريني يمّا، لماذا غيّر يوسف اسمه ؟

تمخطت يمّا بذيل غندورتها وتابعت :

– ذات مساء، بعد الدفن، جمع عمر الفحام زوجته وأبناءه في إحدى الغرف وقال بصوت كان سيبدو رخيما لو لم يكن ينضح حقداً : «وعدتُ الإمام بأني لن أقتل هذا المجرم. لا تنقصني الرغبة، لكنني سأحافظ على وعدي. من اليوم، اعتبروا أن عليا لم يمت، بل يوسف، قاتله. مات ودفناه. لا أريد سماع هذا الاسم أبدا. لا يوجد. لم يوجد أبدا. من تجرأ على ذكره، ولو من بعيد، سأطرده من البيت. هل فهمتم ؟» أحنوا رؤوسهم. ثم قال بصوت حازم، وهو يلتفت نحو يوسف المرعوب

والمتكوِّر في أحد الأركان : «من الآن فصاعدا، سيصبح اسمك علي. بهذه الطريقة سترافقك جريمتك حتى الجحيم». ولكن الأخطر في الأمر هو أن الفحام في بلاغه في مركز الشرطة سجّل يوسف، باعتباره الولد الغريق. هكذا، قالت لي يمّا، متنهدة، بأن الصديق الذي أجافيه الآن فقَدَ هويته بشكل رسمي.

هذه الحكاية الفظيعة ظلت تتبعني لفترة طويلة. كنت على وشك مناداة عَزّي باسمه الحقيقي عدة مرات. لكني كنت أتراجع. في النهاية، كانت كنيته تتكفل بالأمر : كانت تعفينا من معاقبته طوال الوقت. رغم ذلك، بعد خروجنا من الكاراج سنوات بعد ذلك، وجدنا أنفسنا عند موقف الحافلات التي تؤدي إلى المدينة. كان هناك نصف نجوم سيدي مومن منتظمين في مجموعتين. عَزّي كان ضمن المجموعة الثانية. كانت الشمس تسقط على الجدران ذلك اللون الوردي الخافت ؛ والعصافير تزقزق غير دارية بشيء ؛ والسيارات تروح وتجيء وهي تطلق دخانا أسودا ؛ وبعض الحمير الهزيلة تجر عربات مُفكّكة مُحمّلة بكل شيء وبأي شيء ؛ راكبو دراجات يصعدون المنحدر وهم يلهثون؛ وأخيرا، الجلبة العادية ليوم عادي. خلفنا، كان سيدي مومن وشاحنات النفايات، مزبلته وأناسه الفقراء. فِيمَ كُنّا نفكر حينئذ، لا أستطيع الجزم. بلا شك في لا شيء. كنا نحمل أحزمة الجنة حول قلوبنا المرتعشة، ونحن ننتظر الخلاص. عناق طويل وهذه الكلمات، التي ما تزال إلى اليوم ترِنُّ في ذهني بشكل غريب :

– سنلتقي في السماء، يا ياشين.

– نعم، يا يوسف، في السماء.

كانت هذه أول مرة أناديه فيها باسمه. ابتسم لي وهو يهز ذراعيه في حركة تنم عن استسلام.

انطلقت الحافلة التي تقل مجموعتنا، الأولى.

6

المدافعون في لعبة كرة القدم لهم قيمة أقل من قيمة المهاجمين. لا نذكر سوى أسماء اللاعبين الذين يُسجِّلون الأهداف. رغم أن المواجهة الحقيقية تتم في خلفية ووسط الملعب. وإن لم يكن خليل، مدافع خط الوسط، يحتل الصدارة، إلا أنه يظل مُكوِّنا أساسيا للفريق. وأعترف أني أدين له بجزء كبير من شهرتي. بدون مدافعين، يتعرض حارس المرمى المفشل ؛ يصبح مصفاة. أنا حريص على رد الاعتبار علنا لهذا الفتى الموهوب. ها قد فعلت ! في الحقيقة، لم يكن بيني وبين خليل أشياء تقرّب بيننا. كنا نقضي أوقاتنا في مشاجرات في الملعب. وفي أحيان كثيرة خارجه. ذات يوم، بعد أن اتهمني بالتواطؤ مع الخصم، بسبب هدف ممحوس دخل شباكي، رماني بغتة ببقايا قنينة، متسببا في جرحي في الكتف الأيسر. لم يكن الأمر خطيرا، مجرد خدش، لكن بعد أن رأى الدم، سارع أخي حميد بسلسلة الدراجة وانقض على خليل وسط المقابلة، أشبعه ضربا وتركه على حافة الموت. مازلت أتذكر شيئا عجيبا: في نصف وعيه، حرص خليل على أن يبحث في التراب على سِنَّيْه اللتين فقدهما لتوه كما لو كان إلصاقهما ممكنا. كما لو كان الأمر يتعلق بطقم أسنان يكفي وضعه في مكانه لتعود الابتسامة كما كانت. كان حميد، الذي تتضاعف قوته في مثل هذه الحالات، يصرخ مثل وحش وهو

يضرب. لم يتقدم أحد ليفرق بينهما لأن أحدا لم يكن يحب هذا الولد الذي جاء حديثا من المدينة والذي كان يتحرك في غرور. التف اللاعبون في حلقة حول المتصارعين، وأخذوا يصرخون بصوت واحد : «اقتله ! اقتله !»، مُذكين الغيظ في عيني أخي. كان خليل مرميا على الأرض، منكمشا ويداه تحميان وجهه الدامي، وهو يستنجد بنا ويتضرع إلى الله وأوليائه. قاتلتُ بضراوة لأخرج أخي من بين الجموع. تلقيت ضربة أكثر إيلاما من الخدش الذي سبب العراك. السيطرة على حميد عندما يكون مهتاجا أمرٌ مستحيل. كان يفلت مني ويذهب ليعاقب الضحية، مرة أخرى. كان اللاعبون مُبتهجين، ويُصفقون كأنهم يحتفلون بانتصار. استغل أحدهم الوضع وركل المحتضر الذي كان فاقدا الوعي. شجع هذا الأمر الباقين وانضموا إليه حتى كادوا يقتلونه. عندما هدأ أخي، نقلنا الجريح إلى خط التماس واستأنفنا المباراة كأن شيئا لم يكن.

كان خليل طويلا ونحيلا ودميما جدا (وقد ضاعفت سناه المفقودتان من الأمر)، وكان ينظر إلينا دائما باستعلاء. نزوح أسرته من المدينة إلى المعسكر كان يمنحه هيمنة علينا، إذ لم يولد فقيرا – أو على الأقل كان يدعي ذلك. في جميع الأحوال، لم يكن يفوت فرصة دون أن يفخر بذلك. على الرغم من أنه يجب أن يكون أكثر شقاء من باقي أولاد الجوار، فأنْ يولد المرء في الوحَل أهون من أن يسقط فيه بعد أن يكبر. حتى وإن كان يبالغ في وصف ماضيه الوثير، فقد تعرض للسقوط بلا شك. أزقة المدينة الأكثر قذارة أفضل بكثير من حيّنا الصفيحي.

كان بإمكان خليل، ابن حوذي والأخ الأكبر لثلاث بنات، أن يفلت من سيدي مومن لو لم يقلب حادث مؤسف حياته رأسا على عقب. انكسر رِجْل الحصان الوحيد الذي كانوا يملكونه جارّا معه الكثير من الحوادث التي دفعتهم بهم إلى البؤس. بعد أن ذبح الحصان، لم يكن أمامهم سوى حل واحد لشراء حصان آخر: أن يبيعوا منزلهم. كان قرارا صعبا. فكرةُ مغادرة بيت الأجداد كانت فوق التصور. تَردَدَ الأب

طويلا، استشار ذويه، قلّب المسألة في ذهنه مئات المرات قبل أن يحسم المسألة، مسلما ملكَهُ لمهاجر جاء من ضاحية باريس وسدّد نقدا. بكت الأم كثيرا وهي تتبع عربة النقل التي استلفها الأب. لم يكن خليل يستوعب ما يحصل. كان سعيدا بالجلوس وسط الأثاث بينما العربة تشق طريقها وسط الأزقة المزدحمة. استقروا في البداية عند أحد الأعمام منتظرين أن تتحسن الحالة المالية. لكن مشاجرة بين الأم وزوجة العم اضطرتهم للرحيل من جديد. سنة طويلة في ضيافة الجد، الذي كان هو نفسه يعيش في ضيق في بيت تتراكم فيه عدة عائلات، وفي الأخير انتهى بهم الأمر في سيدي مومن، اختلاط طبيعي لجميع الانحدارات. في هذه الأثناء وبدل أن يشتري الحوذي حصانا آخر، أراد أن يكون ذكيا، واستثمر ثروته في صفقة نظّارات من الصين انقلبت إلى مأساة. والأسوء من ذلك، بما أن السلعة كانت مزورة، فبالإضافة إلى وضع اليد عليها، كان من الممكن أن تنتهي القصة نهاية سيئة. بقية المال انتهى في جيب القاضي الذي جنّبه السجن. أما بالنسبة للنصّاب، الرجل الساحر الذي كان يدعي التمرس في عالم التجارة، فقد تبخر مع وعوده المعسولة في الطبيعة، تاركا الحوذي وأسرته في أسوء حال. تطلب نهوضهم وقتا طويلا. لكن الأب لم تنضب موارده، فقد أقام بمساعدة بعض الأصدقاء أسوارا من الطين ثم غطاها بالصفائح المتموجة والبلاستيك وأغصان الأشجار والأحجار. فكّك العربة التي لم يعد يحتاجها واستعمل خشبها في صناعة الأبواب والنوافذ. ثم تحوّل إلى تجارة السجائر بالتقسيط.

معجزة سيدي مومن تتجلى في السهولة التي يتكيف بها الوافدون الجدد، سواء جاءوا من البوادي الجافة، أو من العواصم النهمة، أو طردتهم سلطة عمياء وأغنياء يمتصون الدماء، فهم يستسلمون للهزيمة، يعتادون الأوساخ، يلقون بكرامتهم جانبا، ويتعلمون تَدبُّرَ الأمور ورَتْق الحياة. بمجرد أن يصبح العش جاهزا، يتجمعون فيه، يختبئون فيه، حتى نحسبهم عاشوا فيه دائما؛ كأنهم لم يفعلوا شيئا في حياتهم غير تغذية

البؤس الذي يسود فيه. يندمجون في الديكور تماما مثل جبال الأزبال والمساكن الهشة المبنية من الطين والبصاق والتي تعلوها الصحون الهوائية كأنها آذان عملاقة ممدودة نحو السماء. هم موجودون هنا ويحلمون. يعرفون أن الحاصدة تجول، وأنها تأخذ الذين توقفوا عن الحلم. لكنهم يرفضون الموت. يتعاونون ويُكثّفون الجهود. يتربص المرض مثل صياد طرائد، يرونه ويحسون به. يتحدونه. عبثا يمد الجوع ملامسه، يضيق الخناق حتى الاختناق، لكنه لا يقتل في سيدي مومن لأن الناس يقتسمون القليل الذي يملكون. لأنهم يتبادلون قياس ضيقهم المشترك. غدا، سيكون دور فلان. وبعد غد علان. تدور العجلة بسرعة. بين القليل واللاشيء، لا يوجد سوى فُتَات أقل نفَس يُطيّره.

زوّج الحوذي بنتيه الكبيرتين لأولي شخصين تقدما، لأن تناقص عدد الأفواه الواجب إطعامها شيءٌ لا يُرفض. تقام الحفلات المهمة، عادة، في خيمة كبيرة تنصب جهة السقّاية. تغطى الأرضية بالزرابي المستعارة من عند الجيران، وتزين الستائر بأغصان النخيل، توضع عشرات الفوانيس هنا وهناك، وطيلة الأمسية يظن المدعوون بألبسة الحفلات أنهم في الجانب الآخر من السور. لم يخالف الحوذي القاعدة. استنزف نفسه ليمنح ابنتيه كلتيهما عرسا حقيقيا. في كِلا المرتين استقدم طامو لتلهب الحفل.

غادر خليل المدرسة وأصبح ماسح أحذية، يجوب الشوارع والمقاهي وكل الساحات المزدحمة في المدينة.

شيئا فشيئا، اندمج في المجموعة. ترك عجرفته جانبا، ومن جانبنا، أصبحنا أكثر مرونة، وأقل عدوانية. غالبا ما كان يوافينا في المساء إلى كوخ نبيل. كان يحضر قنينة كوكا كولا وبسكويت هنريس أو قطعة حشيش مع التبغ الأصفر وورق اللف. كان يقص علينا أيامه العجيبة في المدينة، مشاجراته من أجل احتلال مكان استراتيجي، حيَله للإفلات من مراقبة نادلي المقهى الذين يطردون الدخلاء (من مؤجري الجرائد، باعة

السلع المهربة، السماسرة، النشّالة، ماسحي الأحذية...). كان يصف بالتدقيق الوجبات اللذيذة التي يتناولها عندما يكون المكسب جيدا في الصباح : سندويش السقانق بالفلفل، بيصارة الفول بزيت الزيتون والكمون، أرجل العجل أو رأس الخروف مستوية الشيّ. كان يثير شهيتنا بذكر كل هذه الملذات. أيام الجمعة، كما كان يقول، يمنح الناس الكسكس واللبن أمام منازلهم. كان يحدث أن يتناول الغذاء ثلاث مرات متتالية ويتزاحم مع المتسولين كي ينزع قطعة لحم.

كنا نعلم أنه يبالغ، ومع ذلك كنا نحب سماعه. كان يتأسف لكون أحذية البلاغي لا تحتاج إلى تلميع، وإلا لكان قد اغتنى ! لكن لم يكن ثمة من داع لأن يُكثِر الشكوى، فقد حدّدَ له والده مبلغا معقولا أوجب عليه إحضاره في المساء. وكان يتدبر أمره. لم يكن يستسلم للسهولة كما يفعل أقرانه، ولم يكن يخدع السياح، إلا في النادر، رغم أن هذا الأمر يمكن أن يُدِرّ عليه ما يُعادل يومَ عمل. لا، لم يكن يمتهن هذه الطريقة، اللهمّ إلا في حالة الضرورة القصوى.

وهكذا، بسبب كَسْر أصاب حصانا، ساء مصير عائلة بأكملها.

وإذا كنتُ وخليل قد أغمدنا سيفي الحرب، فإننا لم نتآخ إلا بعد مرور سنوات في الكاراج. والفضل الكبيرُ يعود لأبي الزبير.

7

بفضل فتيان مثل خليل ماسح الأحذية، ونبيل ابن طامو، وعلي (أو يوسف) المُكنى بعَزّي، وفؤاد، وأخي حميد، انتهى بنا الأمر إلى تكوين عائلة، شاء من شاء وأبى من أبى. وحين يتورط أحدنا في مشكلة، يَهبُّ الآخرون كَرَجُل واحد لإخراجه من الأزمة. عندما بدأ فؤاد، مثلا، يشم اللصاق، خُضنا حربا بلا هوادة لدفعه للإقلاع عن ذلك. لكنه استمر على ذلك سرا. كم مرة فاجأته وهو في السحاب خلف عارضته تاركا الأطفال الأشقياء يسرقون حلوياته دون أن يتحرك، ودون أن يرميهم بالحجارة كما يفعل عادة عندما يكون في وعيه. الأسوء من ذلك، أنه كانت تبلغ بهم الجرأة أن يفتشوا جيوبه كما لو كان الأمر يتعلق بمخمور مألوف . كان فؤاد مغيَّبا. يسافر في رأسه. عبثا كنت أهزه، لم يكن يصدر عنه أي رد فعل. كانت عيناه المفتوحتان تنظران إلى عالم لم أكن أصل إليه. كنت أكتفي حينئذ بجمع ما يمكن جمعه من سلعته وأجرد إلى البيت. بمجرد أن تفتح أمه الباب، كانت تنطلق في السباب والتهديد. بالكاد كانت تدعنا ندخل. كنت أحمل صديقي إلى غرفة ضيقة وأضعه على حصيرة كما نضع الكرة. كان يتركني أفعل. في بعض الأحيان، كان يبتسم لي، دلالة على أنه ما يزال على قيد الحياة.

عندما فقد فؤاد والده، تزوج عمُّه الذي أصبح مؤذنا والدتَه، مدعيا أنه فعل ذلك من أجل إنقاذ الولدين من براثن زوج مفترض غريب للأمّ. عادة قديمة لم يستطع فؤاد أن يألفها، لأنها أيضا جعلته يفقد امتياز أن يكون كبير الأسرة. أظن أن بداية إدمانه السيلكون كانت نتيجة هذا الزواج – مهما يقال – المنافي للطبيعة. لم يكن فؤاد قادرا على تدخين الكيف أو الحشيش مثل الجميع. كانت أقل نفحة تحدث لديه نوبة سُعَال حادة. كان اللصاق يناسبه أكثر لأنه كان البديل الوحيد للهروب. لكننا لم نستسلم، وصل بنا الأمر حد طرده من المجموعة لمدة طويلة. لم يكن باستطاعتنا الاستغناء عن مواهبه في الملعب، لكنه لم يكن مُرحَّبا به في الأمسيات عند نبيل. ثمة تفصيلٌ مهم، وهو أنه لم يكن يشم أيام الآحاد، أيام المقابلات، كما لو كانت الكرة تنشطه أكثر من تلك القذارة التي يشمها باستمرار. أظن أن تشدد أخي حميد في الموضوع أتى أُكلَه. عانى فؤاد كثيرا بسبب عزلته. ثار في البداية وهدد بمغادرة النجوم والالتحاق بفرقة منافسة، لكنه استسلم في النهاية. حدث هذا في الفترة التي استقر فيها مع أخته غزلان عند جدته في دوار سكويلة. ذات يوم، وأمام جميع أعضاء الفريق، منح منديله الأسود اللزج وأنابيب اللصاق لشمّام كان مارا من هناك. انتهى الأمر. منذ ذلك الحين لم يعاود الكرّة.

مع مرور الوقت، قمنا بعدة إصلاحات في كوخ نبيل، وضعنا عدة مقاعد، وفرشنا بساطا، وأحضرنا طاولة مستديرة بمناصب ووضعنا حولها عدة نمارق. عندما يتوقف مشغل الكاسيت عن العمل، كنا نضبط الإيقاع بأنفسنا مستعملين الآلات المتوفرة : طبلة، دربكة، قدر. كان نبيل يرتخي في بعض الأحيان، ويأخذ في تقليد أمه. كان صوته جميلا. وكنا نستمتع كثيرا برقصه. كان يحرك مؤخرته بانسجام. مموجا كتفيه ومحركا رأسه من جانب إلى آخر كما لو أن كل قطعة من جسده كانت منعزلة عن الأخرى. كما لو أن كل طرف من أطرافه مرتبط بدماغ مختلف يحركه ملاك، يستعمل عصا سحرية غير مرئية، بمهارة. كان جلده

أبيض، وكان شعره الكستنائي المجعّد قليلا يحدث فينا تأثيرا غريبا. لم يكن حميد يتورع عن إطلاق المزاح وهو يخاطبه باسم أمه : من هنا مامو، من هناك طامو. كان نبيل يضحك معنا، ولا يتوقف عن الرقص حمله أمواج عنيفة وهو يمر عبر سحاب دخان يتكاثف أكثر فأكثر، راسما منات الزخارف. كانت لفائف الحشيش تنتقل من يد ليد، ويحتد الغناء. أتذكر أني ذات مساء، رأيت صفيحة السقف تطير لتعزم السماء اللامتناهية لتشاركنا الاحتفال. كنت أرى النجوم تشع، والأقمار وأعين الخفافيش. أتذكر أيضا (وأنا أشعر بأسف عميق) الحادثة الحزينة التي مرت عائلتنا الجديدة. حدثت في شهر غشت. كان القيظ يبلغ ذروته. كنا قد ربحنا مباراة ضد أفاعي دوار لَحْجر، خصومنا الدائمين. كان مراد قد برع في اللعب، مسجلا الكثير من الأهداف حتى كاد الأمر يتحول إلى مهزلة. خليل، دفاع الوسط، كان قد طبق شعاره بالحرف، إمّا أن يمر المهاجم بدون الكرة، وإما أن تمر الكرة بدون المهاجم، ولا يمر الاثنان معا. دفع ثمن شجاعته : عدة جروح وعين متورمة. أما بالنسبة لي، فقد كنت، بلا فخر، أقفز كما كان يفعل ياشين في أيام عزه. لم يكن المحاذبية تأثير على جسدي المرن. الهدف الوحيد الذي دخل شباكي كان، حسب رأي الجميع، حتميا. الخلاصة هي أننا كنّا منتشين بانتصارنا الساحق، وقررنا الاحتفال به في نفس المساء في بيت نبيل. أحضر كل واحد منا شيئا. اشترى خليل قطعة حشيش من الدرجة الأولى، لونها أخضر أقرب إلى السواد لزجة وفق المرام. دخنا اللفافة تلو الأخرى ونحن نحتسي القهوة الممزوجة بجوزة الطيب. كان حميد قد حضر لنا شرابا مفرقعا (كوكا كولا أضاف إليها جرعة من الكحول) جعلنا في حالة غير طبيعية. كنّا منتشين بالفوز وبسبب الكحول، غنينا ورقصنا، منفردين وأيضا مع بعضنا البعض. كان نبيل ثَملاً. ارتدى غندورة بيضاء ووضع عمامة حول ردفيه كي يرسم محيطهما ثم هاج وسط المجموعة. اشتغل مشغل الكاسيت الذي شاركنا الحفل جيدا. ترددت الأنغام حولنا، وهي

تثير الدم في عروقنا، لوّنَ الدم المحتدم وجوهنا المُصفرَّة عادة، دم الفرح والولائم الكبيرة، دم التمائم والأضرحة في أمسيات الاحتفال. كنا في عالم غير حقيقي، بعيدا عن الأزبال والأوساخ، بعيدا عن البؤس والأشباح التي تسكنُه. وحده الشعور بعدم انهزامنا كان يهم. كنا ملوك العالم. سكارى، نشرب السحاب، نصفق بالأيدي ونصيح من السعادة. كانت غندورة نبيل تنتفخ لكثرة دورانه على نفسه. كان يلعب بحدقتيه، كان يدور أسرع فأسرع. ثم سقط أرضا مغشيا عليه مثل مظليّ وسط مظلته. يمكن أن نحلف أن ملاكا عاشقا وغيورا ساهم في هذا السقوط. لا أدري ماذا أصاب أخي لكي ينقض عليه كأنه طائر كاسر. مثل عادته، كان حميد يستغل عنصر المفاجأة مع خصومه. هذه كانت علامة ماركته. كان يضرب في اللحظة التي تخفف فيها الضحية من احتراسها. لكنه هذه المرة، أخذ يقبل نبيل الذي ظل جامدا بلا حراك. تأثير كؤوس الكحول التي طفحها خلال الأمسية. كان يقبله، أو يلتهمه بقبله كما لو كان يشتهيه طيلة الوقت ووجد أخيرا الفرصة لينتقم، متخلصا من قيوده ويدوس بضراوة على حرمانه. ثم، بعد استراحة، جال بنظره على المجموعة المهيجة، ثم بلطف، وبدون أن يحس بأي حرج لوجودنا، قام بتعرية نبيل، وأخرج عضوه الصلب وأدخله في مؤخرته. تصرف بطريقة طبيعية أذهلتني. بدا أن الأمر لم يصدم أحدا غيري. كان حميد سريعا في كل ما يفعل، لم يدم لعبه كثيرا. استدرت كي لا أرى المنظر المؤسف الذي لم أكن أسمع منه سوى الحشرجة المختلطة بغناء ناس الغيوان. ثم أتى دور فؤاد لكي يمتطي النائم. تصرف بلطف، مدللا مطيته كما يحدث في بداية سفر طويل. كان نبيل فاقدا الوعي، ممددا وسط الغرفة شبيها بجثّة. كان فؤاد يحضنه، ويهمس في أذنيه كلاما غير مفهوم. صرخة عصفور، ثم صرخة رجل يطعن. التالي! بدا أن عليّ يحس بالندم، تردد قليلا ثم استسلم. بدأ خليل يفقد الصبر ويتأفف لأن الأسود لا يريد أن ينتهي. قرر إزاحته وأخذ مكانه، وأضحكت حشرجته المجموعة. لم يبق غيري.

أجهل لماذا لم أسمع قلبي الذي كان يأمرني بالانصراف، أن أفر مسرعا من هذا المكان الذي احتله الشيطان. بقيت هناك في ركني، محنيا رأسي، متورطا في حلم سدت أبوابه. رأيت نظرات التحدي تحيط بي، مُضيِّقةً علي الخناق. كنت منوما، لا أعرف ماذا أفعل. غادر حميد الغرفة كي لا يحضر عرضي. كان يعرف ضعفي وجبني. يشهد الله أني حاولت أن أكون في المستوى. كنت أريد أن أبرهن لهم أني لست شخصا ضعيفا. كانت مسألة كرامة، كما هي مسألة فُحولة. اقتربت من نبيل مرتعشا، وأنا أظن أني قادر على تدبر الأمر إذا استطاع عضوي غير الموجود إظهار اهتمام بالأمر. سقط عرق كثير من جبيني سالكا مسلك الدموع وسقط على الجسد العاري الذي كنت قريبا منه. اختلطت الدموع حتما بالعرق لأني تبينتها بمذاقها المالح في فمي. في هذه اللحظة بالضبط فتح نبيل عينيه، أريد أن أقول عينين تنظران، عينين تثيران الشفقة، مذهولتين وحائرتين. كان حتما يتساءل عما حدث له. هل ارتكب خطأ خلال المقابلة يكفر عنه الآن ؟ هل ظلم أحدا ؟ لم يفهم شيئا. أنا أيضا. على كل حال، محت نظرته كل البطولة التي كان ينتظرها مني رفاقي. فضلا عن ذلك، عفوا عني لأني رأيتهم يخرجون الواحد تلو الآخر، كما لو أنهم أفاقوا من سكرتهم فجأة، مستوعبين دناءة تصرفهم. بقيت فترة طويلة صامتا أمام جسد نبيل الدامي. كان يتألم وهو ينطق هذه الكلمات : «ماذا حدث، قل ؟»

لم أُجِب، مكتفيا بإسدال الغندورة البيضاء على عريه، على اضطرابه وذُلّه، كما نسدل ستار المسرح حيث مثلت مسرحية مقبرية.

8

لم تكن هناك فقط الأعمال العنيفة في سيدي مومن. ما أحكيه لكم هو خلاصة ثمانية عشرة عاما من العيش في حشد بشري. لذا فكل شيء سيكون حتما مضطربا. تُبرز هذه المشاهد الحزينة حياة شابة. وموتا شابا، أيضا. موت بدون جثة تقريبا، لأنّ جثتي جُمعت أشلاء. السخرية، دفنوا معي بقايا من جثة خليل: فك بدون أسنان، أصبعين من اليد اليمنى، التي شغلت الجهاز، ورجل بقدمها لأنه خطرت لنا فكرة شراء نفس الحذاء القماشي عشية اليوم الكبير. تم كل شيء بسرعة لأنه كان باديا أن مقاسه أكبر من مقاسي. وها نحن الاثنان نستريح في نفس المربع في ظل شجرة سدر في عمق المقبرة، نحن اللذان لم نكن نتفاهم كثيرا. لم يُصَلَّ علينا لأنه لا تجوز الصلاة على المنتحرين. ما زلت أرى والدي وأشقائي والشجعان من نجوم سيدي مومن يحيطون بالثقب الذي وضعوني فيه. أقول شجعان لأن هؤلاء كانوا يعرفون أنهم لن يفلتوا من استدعاء ثان إلى الكوميساريا المركزية. وشرطتنا ليست من النوع اللطيف. عندما يلقون القبض على مُتَّهم في مكان ما، فكل قريته تكون متهمة، لكنهم حرصوا على الحضور. والدي الذي ظل لفترة طويلة يَدَّعي أنه لا يستطيع المشي، تبع الجنازة على قدميه. لم يتحرك حتى آخر كمشة تراب. يمكن القول إنه التقط بعض فتات الحياة التي فقدتُها للتوّ. كان أشقائي الكبار يُحيطون به

منتبهين في حالة ما إذا جفلت قدماه. لكن أبي كان يتحمل، وصدره منحن قليلا كأنه عسكري يتكئ بالكاد على عصاه. كان أول من لاحظ دخول يمّا إلى المكان. يمّا، أو ما تبقى منها. كانت قد غادرت البيت في اليوم الذي اجتاحه فيلق رجال الشرطة الذين قلبوه رأسا على عقب. وأخبروها عن المذبحة التي اقترفتها مع حميد وباقي الإرهابيين في المدينة ؛ عشرات الأبرياء الذين فقدوا حياتهم، الخسائر المادية المُهمة، ذُعر البلد بكامله. تركت يمّا جسمها يسّاقط على آنية غسل ثياب مقلوبة في الحوش ولاذت بالصمت. اكتفت بالنظر إلى ما يحدث كأنها لم تكن معنية، كأن الولدين اللذين توفيا لم يكونا ولديها. لم تكن تبكي، ولم تكن تتأوه. العش الذي أمضت سنوات تبنيه وتحيطه برعايتها والذي أخذته، بشكل مفاجئ، زوبعة كان لامرأة أخرى. لا، لم يكن زوجها ولا أبناؤها من يقودهم رجال الشرطة بخشونة وأيديهم مكبلة. يتعلق الأمر بحشد من الغرباء يعاملون بشراسة غرباء آخرين، وسط الصراخ والتوسلات كما يحدث غالبا في الجوار. لم تر أيضا الجارات اللائي جئن بأعداد كثيرة لمواساتها. لم تسمع عويلهن، ولا أحسّت بعناقهن الداعم والمتكرر. كانت ترى الناس والأشياء تتحرك وهي في خدر كما كان يحدث لها مساء أمام التلفاز عندما تنجح في أن تفرض علينا مسلسلا مصريا. كنا حينئذ نراقب إغفاءتها كي نغير القناة لأنها تكون متعبة جدا وتنام بعد البداية بخمس دقائق. لكنها هذه المرة لم تغف. مستغلة البلبلة الحاصلة، نهضت وغادرت البيت دون أن تلبس جلبابها، ولا حتى تحتذي بَلْغتها. لم يرها أحد، حتى كان يوم دفن جثثنا. كان إخوتي قد بحثوا عنها في كل مكان، مشركين جميع العائلة. بدأوا بالمعسكرات المحيطة: الشيشان، توما، دُوّار لَحْجر، دوار سكويلة؛ ثم خارج الأسوار حتى أزقة المدينة المنعزلة. طرقوا أبواب المساجد والأضرحة متحسبين أن تكون قد التحقت بخليط المتسولين. لا شيء. كأنها قد تبخرت. الشرطة أيضا كانت تبحث عنها من أجل تكملة المعلومات. ويعلم الله كيف كان

توزيع أعوان الأمن في المدينة بكل ما كان البلد يحتويه من قوات. وها هي تنبعث بقدرة قادر. المخلوقة المتزرة بالأسمال التي كانت تمشي حافية القدمين في الممر المليء بالأشواك، مشعثة الشعر، ونظرتها في الفراغ، وسط المقبرة كانت أمي الطيبة العجوز. جاءت تودعنا. ارتفعت الجلبة لأن النساء لا يقبلن في المقابر أيام الدفن. لم تُعِرهم يمّا اهتماما؛ اقتربت ببطء مثل بهلوان على حبله. خطوة بعد أخرى. لن تسقط وهي قريبة جدا من الهدف. أراد إخوتي أن يسارعوا إليها. لكن أبي أوقفهم فورا. أصبح الصمت ثقيلا أكثر مما كان في ذلك اليوم الحار من شهر مايو المشؤوم. فسحت الجموع المحيطة بقبري ممرا لها. عدة عيون كانت تراقب المخلوقة الضعيفة التي كانت تواجه بكل بساطة عادة لا تتغير. اقتربت من الحافة كأنها ستقفز لتنطرح بجانبي، كأنها أخيرا ستطلق الشهيق الذي انحبس في حلقها منذ مدة. لكنها لم تفعل. اكتفت بتلاوة اية من القرآن بدون ترتيب ؛ كانت لوحدها في البداية تحت أنظار حفّاري القبور المذعورة، ثم تبعها متسول أعمى بصوت أجش يثير القشعريرة. أخذ والدي في الترتيل بدوره، ثم إخوتي، ثم باقي الحضور. التحق باقي المتسولين، الذين ظلوا على جنب، بالمجموعة وأخذوا في عرض مرتفع كي يستحقوا التين المجفّف والتمر الذي كان من المفروض أن يوزع عليهم. لكن لم تكن هناك نسوة في البيت ليفكرن في العطايا و التقليد المتبع في المآتم، أو حتى استقبال المُعزِّين. مهما يكن، فلم يكن هناك جمع كبير لأن رجال شرطة بالملابس المدنية لم يفتروا يحومون في الجوار. كل رجل يمر كان إرهابيا محتملا. لذا انِدس الناس في بيوتهم و لم يعودوا يخرجون تقريبا. المزبلة أيضا كانت فارغة، بدون حياة. لم يكن أحد ينبش في النفايات الحديثة التي ظلت الشاحنات تصبُّها. ولا صرخة طفل. وحدها العصافير والقِطط كانت تستمتع وهي مندهشة بالنَبْش في هدوء. كان يسود سيدي مومن جو كئيب، شبيه بذاك السائد في هذه المقبرة الحزينة التي كثيرا ما لعبنا فيها من قبل. كنا نأتي لنزعج المخمورين

الذين يلجأون إليها. كنا نرميهم بالحجارة ثم نهرب ونحن نصيح بلا انقطاع. كانوا في حالة سَيِّئة ولا يستطيعون الإمساك بنا. في الوقت الذي كانوا يحاولون فيه الإمساك بنا، كان أخي حميد يتسلل من الجهة المقابلة ويأخذ حزماتهم. كنا نستغرق في الضحك، خصوصا عندما يشعل فيها النار ويرقص حولها...

واصل حفّارو القبور عملهم في جو عائلي تقريبا. وضعوا حجارة مُسطّحة على جثتي كما لو ليمنعوني من الهروب من مملكة الأشباح، غَطّوني بالتراب ومسدوه بأن صبوا عليه الكثير من ماء الزهر. هكذا استطاعت المرأة التي اعتبرها البعض حمقاء أن تفرض دفنا لائقا لأبنائها.

– أين حميد ؟ سألت يمّا بصوت حازم، مُوجّهة السؤال لوالدي.

أشار بعينيه إلى قبر مجاور حديث الطمر. اقتربت من القبر وتقرفصت جنبه. كان حميد الابن الشقي في البيت، لكنه كان المفضل لديها. كانت تصرخ في وجهه من الصباح إلى المساء بسبب أخطائه الكثيرة، وكانت تُشبعه ضربا عندما يتخطى الحدود، لكن هذا لا يمنع أنها كانت تحبه أكثر منا لأنهما كانا يتشابهان. كانا من طينة واحدة، يتقنان كل ما يصنعان. لكي يتم إنجاز شيء ما حسب المعايير، كانت يمّا تَعْهد به، حصريا، لحميد. كان يحقق ذلك، ولا يعود أبدا صفر اليدين. كانت روح المبادرة لديه تُحسّسها بالفخر. ورغم أنها كانت تعارض الطريقة التي يحصل بها على المال، كانت سعيدة وهي تراه يرتدي ملابس شبيهة بملابس فتيان الأحياء الجميلة، جينز أزرق وأحذية رياضية آخر صيحة، كانت تتقبل شعره المدهون رغم كونه دهنيا ولاصقا لأن الموضة تفرض ذلك. كانت أيضا تغمض عينيها عندما يأخذني عند الخياط ليصنع لي صدرية أو سروالا، أو عندما يحضر شوكولاتة بالبندق لأبي. في بعض الأحيان كان يقدم لها عطرا تأخذه وهي تحتج. كانت تضعه في الحال في الدولاب الذي تغلقه بالمفتاح ولا تخرجه إلا في الأعياد. كانت يمّا تحب كثيرا الشذا الحلو للقنينات

الجميلة التي يحضرها المُهرِّبون من مدينة سبتة. عندما كنت أفاجئها تتعطّر كانت تضع قطرة خلف أذني وتقبلني. لكنها اليوم بعيدة عن أجواء الاحتفال، ولا تنبعث منها روائح حميد. جالسة القرفصاء قرب الأرض المبللة، يداها على وجهها الجاف حيث حفرت التجاعيد التي تتغذى من الحزن خدودا في وقت وجيز. اختفت عينا يمّا تقريبا، كأنما ابتلعهما الحاجبان. فقدا بريقهما وأصبحا فقط كأنهما ثُقْبان تافهان. في الماضي كانت تلك العينان تجعلاننا نرتعد. كان يكفي أن ترفعها يمّا نحو أحدنا كي تنومنا. ها هما ميتتان، هما أيضا، مثل حميد ومثلي، مثل خليل، ونبيل، وعلي، بسبب الأشخاص الذين عرفناهم في الكاراج والذين كان أبو الزبير يسميهم «الأمير وأصحابه». آه! هؤلاء، سأحكي لكم حكايتهم من بعد. كان عددهم أربعة، جاؤوا من الأحياء الصفيحية المجاورة كي يَهدُونَنَا إلى الصراط المستقيم. كانوا يحفظون القرآن عن ظهر قلب وأحاديث الرسول كما لو عاشوا بصحبته. كان هذا الأمر يُعقّدنا. كان أبو الزبير يقول إنه كان يكفينا أن نباشر الأمر، نحن أيضا. كان في وسع أي أحد أن يتعلم.

انتقل الجمع من قبري إلى قبر أخي. التفوا في دائرة حول أمي وابنها الميت عند قدميها. كان القبر مغطى، مررت يمّا يدها على التراب المبلل كما لو كان حميد يستطيع الإحساس بمداعبتها. انحنت وقبلت التراب وانسخ وجهها. أخرج سعيد، كبيرنا، منديلا من جيبه، ومسح وجهها ثم جلس بالقرب منها. عندما لم تُمانع، مرر ذراعه ببطء حول كتفيها وجذبها نحوه. استرخت شيئا فشيئا. التحق بهما بقية إخوتي. عندما شمَّ الأعمى الإكرامية تابع بسورة من القرآن تذكُر أبواب الجنة المفتوحة للميت، تذكر بالتفصيل المحاسن التي تنتظره هناك، أنهار اللبن، الخمر والعسل؛ الحور العين، الغلمان المخلدون وأشياء أخرى. كان يقرأ بإخلاص يجعل المرء يحس برغبة في التمدد مع الميت. كان باقي المتسولين يتبعونه. وحصل حميد على دفن قريب من العادي.

عندما رفع سعيد يمّا بين ذراعيه، تركته يفعل. كانت تبدو خفيفة. مَسدَ شعرها وضَمَّها إلى صدره. همس في أذنها شيئا جعل شعاع ضوء يمرّ على وجهها الكئيب. لم تكن ابتسامة كما هو متعارف عليه، فقط الوميض المنبث الذي يضيئها عادة. دفعها إلى ظهره وحملها إلى البيت كما يُحمَلُ طفلٌ نائم.

9

لا، لم أعشْ فقط أوقاتا عصيبة في سيدي مومن. أخذت أيضا نصيبي من السعادة. الدليل هو قصة حبي مع غزلان، أخت فؤاد الصغرى. لو كان هناك شيء قادر على جعلي أمتنع عن الإقدام على ما أقدمتُ عليه، لكان هو حبي لغزلان. وما كانت العديد من الأرواح لتُزْهق لو أنها تمسّكتْ بي. روحي أنا، وأرواح الآخرين ؛ الآخرين الذين لم أكن أعرفهم وأخذتهم في جرابي مثل صياد بدون رخصة. أكيد أنها كانت ستمنعني من ارتكاب ما لا يمكن إصلاحه لو حملتني محمل الجد. كنا قد التقينا ذات مساء قرب مَشْغَل التَّطريز حيث تشتغل. كنا غالبا ما نلتقي في ذلك الدرب الذي لا يرتاده الكثير من الناس. حاولت أن أكلمها، مُلمّحا إلى أنها ربما تكون المرة الأخيرة التي نرى فيها بعضنا البعض. ضحكت في وجهي وقالت: «احذر المستنقعات فإنها مليئة بالحيات والعقارب !» كنت أعرف جميع الأماكن والزوايا في سيدي مومن، أعرف جميع أكوام النفايات الحديثة والقديمة التي تعرضت للنبش، أعرف كل متر من بؤسنا؛ لذا فلو حدث أن سقطت في حفرة، فبلا شك لأني تلقيت مساعدة على ذلك. عبثاً أضفيت على وجهي قناعا من الكآبة وأنا أُفسّر لها ذلك، استمرتْ في الضحك. كانت غزلان الفتاة الأكثر مرحا، الأكثر إشراقا، والأكثر تَوقُّداً من بين اللواتي كُتب لي أن

أعاشرهن. أقل شيء يجعلها تقهقه. كانت تضرب على ركبتيها وتتحدث بجميع جسدها، بحيث إن أحدا لا يلاحظ قصر قامتها. كان حضورها المرح يملأ الجو بأكاليل شبيهة بتلك التي كانت تزين الأسوار في احتفالات عيد العرش. كانت عيناها العسليتان تلمعان باستمرار وفمها الممتلئ وسط وجهها البيضاوي يحرك العديد من الخطوط التي كانت ساحرة بقدر ما كانت بريئة. كانت حَسَّاسة وعميقة رغم فورتها وأساليبها المصطنعة بعض الشيء. لو بقيتُ حيا لما استطعت أن أصفها كما أفعل الآن. لم يُعلِّموني الكلمات لأعبر عن جمال الناس والأشياء، عن الشهوانية والانسجام اللذين يثيرانهم. وها هو الشبح العاشق الذي أصبحت يرغب في التعبير عن نفسه. أن يتحدث عن الحكاية التي أجتَّرها في ذهني منذ لحظة وفاتي.

في البدء، كانت المزبلة وجماعة الأولاد الأشقياء الذين ينشأون فوقها. عبادة الكرة، المشاجرات التي لا تنتهي، سرقة الرفوف والجري السريع، تحولات التسليك، والحشيش، اللصاق الأبيض والتسكع الذي ينتج عنه، التهريب والمهن الصغيرة، الضرب المتكرر، الهروب وضريبته من اغتصاب وسوء معاملة... وسط هذه الأشياء، كانت تلمع جوهرة سقطت من الجنة، إنها غزلان، صديقتي الحنون الجميلة. لا نعرف كيف هبطت في سيدي مومن، لكنها كانت تفرقع في عالمنا. نغمة نشاز بالمقلوب. حادث سعيد في العالم القذر الذي كنا نعيش فيه. لا زلت أراها في طوقها، تحمل في كل يد دلوا مطاطيا متوسط الحجم، وهي تروح وتجيء بين السقّاية العمومية والبيت. بفستانها الطويل ذي الذيل المُبتَّل، كانت تعطي الانطباع أنها تنزلق على أحجار وأشواك الطريق. اختار ملاك الرشاقة هذه المخلوقة الهشَّة لتتفتح وتعيش بيننا. عندما لم أكن أساعد نبيل في المزبلة، كنت أعرض عليها المساعدة. كانت تقبل عن طيب خاطر، ولمرأى أسنانها البيضاء كان قلبي يرتعش. كنا نتحدث خلال المشوار. كان يحصل أن أقطع المسافة عدة مرات خلال الصباح

بـنفس الاستـمتـاع. كنت أتحمل سخرية رفاقي الذين كانوا يصفوني بضعف الشخصية وشتائم حميد لو أنه فاجأني. لكني كنت أحب أن أكون بالقرب منها. عند السقّاية كنا نرش بعضنا بالماء حتى يبتل شعرنا. على كل حال، كانت ملابسُنا تجفُّ بسرعة. لم تكن ثمّا تفطن لشيء عند دخولي البيت. كنا نتوقف في بعض الأحيان أمام كوخ منعزل حيث استطاعت كرمة تحدي الجفاف فاجتاحت زنك السقف وخرجت مِمّا كان من قبل نوافذ. مكان ظليل، ويا للعجب لم يحتله أحد. كنا نحلم سرا بالسكن فيه يوما، لكننا كنا ما نزال صغارا لكي نقرر المغامرة. كانت غزلان تحدثني عن الجو الكريه الذي أصبح سائدا في بيتهم بعد وفاة والدها المؤذن وزواج حليمة، والدتها، بالعم امبارك. لم تكن تحب هذا الرجل، مقرن الذنب الذي احتل مكان والدها، مهنته، سريره وثيابه. لم تكن تفهم تحول أمها إلى زوجة أب، ساحرة شريرة كأنها خرجت من حكايات الزمن الغابر. لم تكن غريزة الأمومة قوية عند حليمة، لكن تركها لأبنائها بهذا الشكل يُعتبر سلوكا شاذا. لم تعد تهتم سوى بزوجها الجديد الذي أصبح سَيّدُها. هذا الرجل الذي ملأ رأسها وأصبحت مستعدة لفعل أي شيء من أجله. هل كانت حكاية حديثة أم بدأت قبل موت المؤذن ؟ لا أحد يستطيع أن يجزم. مهما يكن، فقد أصبحت تتزين من أجله. كان يمكن القول إنها مسحت عشرين عاما من حياتها لتعود فتاة صغيرة كما كانت. كانت تجلس على كرسي في الحوش قبل الغروب وتُخرِج عُدَّة الزينة، من مرآة صغيرة مستديرة، ومِقْلَمة تحتوي على جميع أشكال البودرة والكريمات والمراهم. كانت تحرص على أن تحيط عينيها بخيط عريض من الكحل تجره إلى حد الأذنين، وترسم القُبَل المرتقبة بالعكار الفاسي، ثم ترتدي قفطانا مُطَرَّزا بعناية وتجلس على سَجَّادة مثل مخطوبة شابة تنتظر حبيبها. عندما يصل امبارك، يكون الشاي بالشيبة محضرا ترافقه الفواكه المجففة، والشموع موضوعة، والمذياع مفتوحا على الإذاعة الوطنية التي تذيع الأهازيج الشعبية والأغاني الوطنية التي تمجد

الملك ونشرات الأخبار الرسمية. كانت تُسارع بإحضار حوض من الماء الدافئ تضيف إليه الملح الغليظ وتدلك قدميه. بعد المسلسل الإذاعي الذي لم يكونا يُفوتانه، كانت غزلان تقدم لهما العشاء الذي يتناولانه لوحدهما في غرفتهما المغلقة.

في تلك الفترة غرق فؤاد في بحر الإدمان. لم يعد يدخل إلى البيت، وإن فعل ففي حالة سيئة، عيناه جاحظتان وتقطران دما. أخذنا على عاتقنا أنا وغزلان أن ننقذه؛ كانت تعتني به داخل البيت، وأنا أهتم به خارجه. كانت تُرغمه على الأكل والاغتسال وتغيير الثياب. كانت تحول بين أمه وبينه عندما تحاول الأخيرة معاقبته بالحزام. «لم يعد لك مكان بيننا!» كانت تقول مستعينةً بشهادة العم الذي يقرّ على ذلك بآية من القرآن. «هذا المتحشش سيجنني! ماذا فعلت للرب حتى يعاقبني بهذه الطريقة؟» كان فؤاد غائبا، لم يكن يحمي وجهه من الضربات التي يتلقاها. كانت غزلان تتلقى بعضا منها لكنها تواصل حجب أخيها متحدية أمها. في بعض الأحيان كانت الأم تنزع خصلات من شعرها ولا تطلق أي صرخة. كانت تتعرض أيضا للخدش لكنها تظل رابطة الجأش. بعد أن تهدأ الأم كانت البنت تعتني بأخيها الذي يظل ممددا، مثل جثة على حصيرة الدوم. كانت تنزع حذاءه البلاستيكي، تضع تحت رأسه وسادة ثم تغطيه. كانت تتمدد بجواره فترة، تُدفئه وتواسيه كما كانت ستفعل أمه لو لم تفقد العقل.

لم تكن حياة غزلان مسلية، هيهات. لم تكن ترتاح لحظةً، تكد من الصباح إلى المساء. لا تغادر المطبخ إلا من أجل قضاء الحوائج، الذهاب بالخبز إلى الفُرن، جلب الماء من السقّاية، طبخ الأكل وتقديمه، غسل الأواني، وغسل الأرضية الإسمنتية ورش الجزء غير المبلط وكنسه. فترة بعد الظهر كانت مخصصة لغسل الثياب التي كانت تنشر على خيط أمام البيت، ولعدم وجود سطح، كانت تظل طيلة الوقت جالسة على كرسي تحرسها؛ ليس فقط من اللصوص، لكن لتزيحها بسرعة عندما تهب الريح

وإلا اضطرها الغبار إلى إعادة عميلة الغسل. أما بالنسبة للأم التي تقاعدت قبل الأوان، فقد كانت تقضي وقتها في احتساء الشاي مع الجارات، أو الذهاب إلى السوق كلما أُعلِن عن وصول سلعة مهربة، أو مصاحبة زوجها أثناء وجبات الطعام. اتصالها الوحيد بابنتها كان ينحصر في الانتقاد والشتم اللذين ينتهيان عادة بالبكاء. كان من الممكن أن تستمر الأمور على هذا النحو لو لم تتحرك غزلان. ولا أنكر دوري في المسألة، وضعنا معا خطة ذكية. تكتيك عجيب لصبيين في الثانية عشر. ويتلخص في أن تتكاسل غزلان، وتفسد كل ما أمكن، كأن تزيد كمية الملح في الطعام، وتتفادى وضعه في عجينة الخبز، وتضيف كمية الفلفل الحار في السلطة، وتكنّس الأرضية دون أن ترشها بالماء بحيث ينتشر الغبار في الكوخ، وتترك البقع أو تضيفها في ثياب الغسيل... الخلاصة، هي تسميم حياة زوج الأم وزوجته الشريرة قدر الإمكان. نجحت الإستراتيجية رغم حياة الجحيم التي اضطر فؤاد وغزلان تَحمّلها عدة أسابيع. تحملا الضرب والاستهزاء والتوبيخ. أُرغِما على أكل الوجبات الملوثة والسلطات الحارقة بسبب الفلفل والحريرة المقززة، بينما كانت الأم والعم امبارك يشتريان سندوتشات لذيذة من السوق ويتلذذان بأكلها في غرفتهما. كان من الممكن أن يستمر الأمر على هذا النحو لو لم تتدخل أمّي لَلاَّ، الجدة من جهة الأب. بعثتها عناية السماء لتضع حدا لوضع لا يطاق. عرضت على حليمة والعم امبارك أن تأخذ معها الولدين في انتظار أن تتضح الأمور، مفسرة أنه من الطبيعي أن يتأثر الولدان لموت والدهما وزواج أمهما السريع وباقي الأمور الأخرى. فقط أسابيع وتعود الأمور كما كانت. سارعت الأم والعم بالموافقة، وكان الخلاص بالنسبة للجميع. حزم فؤاد وغزلان متاعهما في نفس الأمسية وذهبا للإقامة عند مي للاّ في دوار سكويلة، معسكر يبعد عنا نصف ساعة سيرا على الأقدام.

تلقى نجوم سيدي مومن الخبر بقلق، خفنا من أن يفسد فريق الحي الجديد فؤاد. لكن شيئا من ذلك لم يحدث. على أي، بعد فترة قصيرة،

توقف فؤاد عن الشَمِّ، واستعاد مكانته المشرقة وسط دفاع النجوم. حياة جديدة بدأت بالنسبة لغزلان. أخذتها مي للاّ تحت جناحها. منعتها من تخطي عتبة المطبخ وسجلتها في مدرسة تعلم التطريز تديرها إحدى معارفها . «يجب أن تتعلمي حرفة، أيتها الصغيرة، هذه هي الطريقة الوحيدة لتكوني حرة». حرة، كلمة التقطتها أذن غزلان. كان لها رنين فريد يُثلج الصدر. نعم، ستتعلم حرفة، نعم ستصبح حرة وستكون جديرة بالثقة التي وُضِعَت فيها. قدّرتْ غزلان حقا قيمة وجود جدة مماثلة تغدق عليها الحنان، تدللها وتحدثها بلطف، جدة منحتها الخاتم الذهبي الذي ورثته عن أمها بعد أن أخذت منها وعدا بألا تضيعه أبدا، فقالت لها : «قدّميه لابنتك عندما تولد لك بنت !» تضرج لون غزلان وأصبح بلون الطماطم.

كانت مي للاّ تنتمي إلى «أرستقراطية» دوار سكويلة. أرملة محارب سقط في الهند الصينية، كانت تتلقى راتبا شهريا يتحول إلى مبلغ لا بأس به بعد صرفه إلى الدرهم. ولأنها لم تستغنِ عن عملها وكونها مدبرة استطاعت أن تكون ثروة. لم يكن أحد يعرف أين تخبئها لأن بيتها الصلب تلقى عدة زيارات من اللصوص. ذات يوم وجدت حديقتها الصغيرة مقلوبة لأن أحدهم ظن أنها تطمر ثروتها في الأرض. عبثا، ما تزال ثروة مي للاّ في مكانها الأمين الذي لا يعرفه إلا الله ومي للاّ. كان فؤاد يقول إنه يفضل ألا يعرف مكانه لأنه في حالة ما إذا عرف فسيصبح الأمر جد مُغرٍ. كان هذا الأمر يُضحك غزلان. التي كانت تؤكد أنها تتوفر على عدة عيوب لم تكن السرقة واحدا منها. على أي ستطلب من أمّي للاّ أن تسمح لها بصنع الحلويات وسيبيعها فؤاد في السوق كما من قبل. بهذه الطريقة لن يحتاج إلى طلب شيء من أحد. الآن وقد أقلَع عن الشم وعاد ليلعب الكرة لم تكن له احتياجات كثيرة.

كانت مهنة أمّي للا، التي لا تحظى بالشعبية لا هنا ولا في الأمكنة الأخرى، تسبب لها الكثير من العداوات. كانت مساعدة عدلية تقوم

مقام الحاجب. لم يكن مسموحا للرجال بالدخول إلى مساكن الآخرين على حين غفلة للقيام بجرد المتاع قبل المصادرة عليه، فكان اللجوء إلى نساء ناضجات ليقمن بالأمر. مهنة فظيعة كانت الجدة تقوم بها كرها. كانت تتألم لهؤلاء الناس الذين سيُجرَدون من كل شيء لأنهم لم يستطيعوا تسديد ديونهم. حتى بعد ثلاثين سنة من الخدمة كانت لا تزال تعاني. كانت في بعض الأحيان تبعث لتخبر ضحاياها بزيارتها المرتقبة في الغد. بهذه الطريقة كان بإمكانهم أن يخبئوا أمتعهم النفيسة، من مذياع، وتلفاز، وفراش من الصوف... ورغم ذلك فقد كان الكل يحذر منها كما يحذرون من الطاعون. لم يكن يدعوها أحد في الحي خوفا من أن تأتي في يوم وتسأل عن متاعه. الناس ليسوا عادلين، لأن أمّي للاّ كانت امرأة حميّة. صحيح أنها كانت تقتات من ضيق الآخرين، لكنها مهنة مثل أخرى. يفعل حفارو القبور نفس الشيء لكن ذلك لا يمنع من أنهم أناس مفيدون وشرفاء. وأنا في وضع يسمح لي بمعرفة الأمر. بالنسبة لي، كنت أحبها كأنها فرد من عائلتي. هي أيضا تبنتني لأني كنت آتي لأشارك حفيديها اللعب. كنت أناديها جدتي، مثلهما. كانت تلاحظ اهتمامي بغزلان وكان الأمر يُسليها كثيرا. عندما كانت تُفاجئُنا في أحد الأركان، كانت تقول: «في يوم من الأيام، سأزوجكما لبعض. لكن قبل ذلك، كان علينا أن نتعقّل. لا ترتكبا حماقات، أنتما تحت عيني!» تقول هذا، وهي تضحك.

هناك أشياء مؤقتة لكنها تدوم. الأسابيع التي كان من المفروض أن يمضيها فؤاد وغزلان عند مي للاّ أصبحت شهورا ثم سنوات. تباعدت زيارات حليمة و لم يكن ذلك سيئا. كان الولدان يتحاشينها. يغيبان عن المنزل عندما يعلمان بزيارتها المرتقبة. ثم انحصرت الزيارات في أيام الأعياد، إلى أن توقفت نهائيا. لم ينزعج أحد من ذلك. ربما غزلان، بعض الشيء. كانت تُحدّث أمّي للاّ بذلك، لكن هذه الأخيرة كانت تعرف كيف تُهدِئ الأنفسْ بجملتها العجيبة: «سيفتح ضوء الغد بابا آخر». تتالت الأيام وثبت أنها كانت مُحقّة، إذ ساهم الزمن في تبديد آلام الفتاة.

أصبحت لفؤاد طاولة عرْض بقياس متر مربع مركبة على عجلات. كانت متقنة الصنع صنعها حدّاد صديقٌ. كان يبيع عليها الحلوى والشوكولاتة الإسبانية والسكاكر وحلويات غزلان. كان يستقر عند باب المدرسة الوحيدة الموجودة في الجوار وكانت الأمور تسير بخير.

تعلمت غزلان التطريز وأصبحت تعمل لحساب راهبات يوفرن لها القُماش والخيط الجيد. كانت تصنع مفارش المائدة، الملايات، غطاء المخدات، مناديل وخدمات من كل نوع. كثيرا ما كنا نرى سيارات فارهة تقف أمام البيت ويخرج منها نسوة يلبسن الملابس الأوروبية ويتعطرن بأغلى العطور لتقديم طلبيات. كانت أمّي للاّ تقول إنه آن الأوان لتفكر في جهازها أيضا، حينئذ كانت غزلان تتصنع الغضب. كنت أوافيها كل ثلاثاء، يوم السوق، وكنا نخرج معا لنتجول بين الخيام المنصوبة ليلا لتقوم مقام الدكاكين. كانت فوضى دوار سكويلة تتضاعف أضعافا مضاعفة. يعُجُّ المكان بالناس والبهائم التي تتحرك في هرج ومرج. هناك من يصيح، ومن يتشاجر، ومن يضحك، هناك من يأكل لِحدّ التخمة ومن يتجشأ وسط أكوام التوابل الملونة المعروضة أرضا في فوضى عارمة، حيث باعة يتنافسون على ذكر محاسن خردتهم، دجاج مربوط الأرجل يقوقئ حول الفلاحين، نهيق حمير ترزح تحت وطأة العربات الكثيرة الحمولة، عميان يترنمون جماعة بيوم الحساب. كنت أعرف اللصوص الذين يَنْشطون في السوق واحدا واحدا. كانوا يندسون بين الجموع بنظرات مُتوهّجة وأيد خفيفة. كنا نراقب طريقة تصرفهم ببهجة، ضربة صغيرة من شفرة حلاقة على الجيب الخلفي للسروال، ثم يظل اللص يمشي خلف الضحية ينتظر بأناة سقوط حافظة النقود. كانت غزلان تضحك وتربت على ظهري. ها قد حان الظهر. دخان النقانق، وشوربة البيوش، وبيصارة الفول تُحسِّسُنَا بالجوع. نشتري سندوتشا نأكله تحت شجرة. كانت الاستراحة تُقوِينا. ونعود ثانية وسط الجموع. المرور على قارئات الطالع كان شيئا ضروريا لأن غزلان تود أن تعرف كل شيء.

كانت الحَقيرات يعشن على بؤسنا. عند سماعهن تظن أن الفقر سيندثر قريبا وسيسود الود، بشكل مطلق، في دوار السكويلة. يكفيهن صدقا إن لم يَعِدْن بعودة الأموات. كانت غزلان شديدة الثقة بما تقوله ورقة الكوتشينة. كانت عيناها تلمعان بنفس البريق الذي يلمع فيهما لمرأى رُفوف القُماش، تتحسسه وهي تقدم معلومات حول مصدر القطن والكتّان والساتان. كانت تنتقد الأثمان ولا تشتري شيئا في النهاية. أو كانت تقضي الساعات تُسَاوِم الحلي الرخيصة. كانت تحرجني وتضحكني في آن، تدفعني قسرا للذهاب عند الحلاق (هو أيضا يشتغل تحت خيمة) لأنها ترى أني في حاجة إلى زيارته. تجلس على أحد المقاعد وتبتسم لي عبر المرآة. كانت تقول إن الشعر القصير يناسبني أكثر وإنها تعتبرني جميلا. أنا أيضا كنت أعتبرها جميلة لكني لم أكن أجرؤ على قول ذلك. كان يحدث أن أدمدم مجاملة حول شعرها الأسود الطويل. كانت تبتسم. ونحن نمشي جنبا إلى جنب كانت يدانا تلتمسان ونتصرف كأننا لم نلاحظ ذلك. كنا نتظاهر أن الارتعاش الذي يصيب جلدنا كان مصدقة. كنا نتوقف لنشتري قرطاسا من اللب. كانت غزلان تدس ورقة مالية في جيبي لأنها تعرف وضعي المفلس وترى أنه من الأليق أن يكون الرجل هو من يدفع. كانت ترفض استرداد باقي المبلغ. بعد ذلك كنا نتصرف ونحن نجر أرجلنا ونتوقف هنا وهناك أمام طبال يسلي الناس بالضرب على الطبل. لو أمكنها ذلك لرقصت. هكذا كان يمر اليوم كأننا في حلم، قبل الغروب كنا نسلك طريق العودة لأن غزلان كانت ترفض أن تترك أمّي للاّ لوحدها. بعد أن أصبحت امرأة مسنة لم تعد تستطيع الاعتناء بنفسها. كنا نشتري النوغة الذي تحبه والذي كانت تكتفي بمصه لأن الأضراس المتفرقة القليلة التي تحتفظ بها كانت على وشك أن تنقلع. عندما يكون دَخْل الأسبوع جيدا كانت غزلان تشتري لها منديل رأس أو سَجّادة صلاة مُزينة بصورة الكعبة. كانت أمّي للاّ تبلع دموعها لأنها أصبحت حَسّاسة مع تقدم العمر.

ذلك المساء، أيام قلائل قبل القفزة الكبرى، عُدنا من السوق دون أن نتكلم كثيرا. لم تضحك غزلان طيلة الطريق الذي بدا لي قصيرا. لابد أنها لاحظت الحزن الذي لم تستطع عيناي إخفاءه. أردت أن أمشي وأمشي بدون تَوقُف، أردت أن أحس بأصابعها النحيلة تلمس أصابعي مرة أخيرة، لكننا كنا قد وصلنا. قرب البيت، في الدرب المظلم، جَمعتُ شجاعتي وقبَّلْتُها.

10

عندما يستحضرني الأحياءُ، يتخذونني منفذا إلى عالمهم. أنساب منه بهدوء، دون أن أحدِث ضَجَّة. أتفادى إخافتهم، وإلا اعترضوا وواجهوني بأسوار النسيان الرهيبة، وتركوني قابعا في حياتي البرزخية يقتلني الملل. لذا أقمع كل رغبة لدي في التدخل في أمورهم الدنيوية. يفاجئكم الأمر، أليس كذلك، أن تتدخل روح هائمة في عالم الأحياء ؟ ليس أمامكم من خيار سوى أن تُصدقُوني. ليس مسموحا لي أن أقول أكثر. كل ما أستطيع قوله هو أننا نتوفر على مجموعة من العلامات نطبع بها طريق بعض الأقرباء، لو تحمل هؤلاء عناء تأملها. نحن على مدى مناسب للتأثير في حالات محددة. يمكن أن يتجلى هذا الأمر في عدة وسائل . طريق الأحلام هو أوضحها، لكنه يظل في بعض الأحيان مُربِكاً. غالبا ما تستبدّ بي الرغبة في الصُيَاح عندما أفاجئ أوهاما تُزاحم سوءَ حظي ؛ أؤلم نفسي كي نحترم قواعدنا. أحس برغبة في أن أقول : كل الأسباب التي يقدمونها لكم، مهما كانت جَذَّابة، هي أسباب من أجل الموت. حينئذ أتألم بصمت، وأحاول أن أحبس جموح شياطيني. في بعض الأحيان أقول إن عدم القدرة على التدخل من أجل تغيير الأمور هو الجحيم نفسه. كَذبَ علينا أبو الزبير عندما وعدنا بدخول فوري إلى الجنة. كان يقول إن حصتنا من جَهنَّم عشناها في سيدي مومن، وبالتالي

لم يعد هناك ما هو أسْوء. أكثر من ذلك، اليقين الذي كان ينفُثه في أذهاننا يوما بعد يوم كان يصنع دُروعاً ستمكّننا من تخطي السماوات السبع للوصول إلى الضوء. كان يصف كل مرحلة بعقباتها وإغراءاتها، شكوكها وتيهها. لدى سماعه كان يمكن الجزم أنه مات عشرات المرات وعاد إلى الحياة عشرات المرات لشدة ما كان يعرف تفاصيل السفر الكبير بالتدقيق، ونظرا للصدق الذي كان يبدو في عينيه وهو يتحدث.

في كاراج آخر من حي صفيحي آخر توجد صورتي التي علقها أبو الزبير على الحائط جنب صُوَر الشهداء الآخرين: نبيل يبتسم بسعادة، خليل يبرز تكشيرة، عزّي الذي تخلص من لونه الأسود يفتح عينيه الجاحظتين ويرفع شارة النصر، وأخي حميد، كما كان دائما، يختال في صورة الزعيم بالفطرة. يُمجِدنا أبو الزبير بهذا الشكل ليضمن مواصلة الحرب ضد الكَفَرة. سيحلم العديد من الصبية بالعدل والتضحية عند رؤية صُوَرنا، كما فعلنا، في الماضي القريب، ونحن نشاهد أشرطة الشهداء الفلسطينيين أو الشيشان.

لم يكن أبو الزُبَيْر، مُرشدَنا الروحي، مُتديِّنا من بدايته. عاش حياة الفُسُوق لفترة طويلة، ولم يكن يخفي ذلك. بالعكس، كان يستخلص منها الحجج ليقنعنا بفضائل حياة الزُهْد والورَع. كان بإمكانه التحدث في الأمر بكل موضوعية لأنه مُجرب. مثل الصفوة الذين شملهم العفو كان قد قاوم بشراسة تفاهة الرذائل. القرب من النور أصبح يغرقه نشوة لا توصف، يملأ نفسه بسلم داخلي أكبر من ذلك الذي يحدثه الحشيش. كان أبو الزبير يختار الكلمة الصحيحة، الكلمة النهمة التي تدخل الذاكرة، وعندما تنتشر فيها تبتلع الإخفاقات التي تتراكم فيها. ولد وترعرع في دوار لَحْجر، معسكر أكثر خرابا من حينا، وإن كان ممكنا مقارنة تداعياتنا. رجوعه إلى الله كان في سجن القنيطرة حيث أمضى عشر سنين. لم يكن يتحدث عن جريمته، لكننا كنا نعرف أن الأمر يتعلق باغتصاب ونصْب. فترة من حياته يصفها بالضَيَّاع التام. كان يقول إن

السجن أنقذه من نفسه. التقاؤه برجال تُقاة كان هدية من السماء. هدفه في الحياة أصبح هو أن يساعدنا على تزكية أنفسنا. أن يهدينا إلى الطريق المستقيم. هذا الطريق قادنا مباشرة إلى الموت. موتنا، وموت أقاربنا المفترض أننا نحبهم. مباشرة نحو جدار أعمى يحيط به العدم حيث كل شيء أسف وندم وبؤس. مباشرة، مباشرة، مباشرة ...

كان الكاراج مكانا نحس فيه بالطُمأنينة. على سجادات الصلاة المعلقة على الجدار خُطِّطت آيات قرآنية بخيط الذهب. كان الأثاث ينحصر في حصيرة صُنع من نخيل ومائدة منخفضة وتلفاز ومكتبة. عندما كان يجلس متقرفصا بملابسه البيضاء كان يشع بنور غريب. عندما كان ينظر إلى أحدنا كنا نحس أنه يقرأ في قلوبنا كما في كتاب مفتوح. كان يملك حاسة سادسة تجعله يُخمن أفكارنا الأكثر سرية، شكوكنا، تساؤلاتنا التي كان يملك عنها إجابات واضحة ومحددة.

كم كان عمرنا خلال لقاءاتنا الأولى؟ خمسة عشرة سنة، ستة عشر. كان حميد هو أول من عاشر أبا الزبير. كنت أراهما يتجاذبان أطراف الحديث قرب المزبلة حيث دفنا مراد. كان حميد معجبا بحديث صديقه الفصيح وكان يصفه بالملاك الحارس. في حين كان يبدو لي شيطانا. كرهته في البداية لأنه كان سببا في حرماني من اهتمام أخي حميد. حميد الذي أصبح فجأة يهملني. وكأنني بين عشية وضحاها لم أعد موجودا. لم يعد حميد يهتم بمباريات الأحد ولا الخناقات التي تتبعها. ولم يعد يهتم حتى بتجارته التي كَسُدت. أخذ الأطفال الذين يشغلهم في المزبلة يسرقونه دون أن يتعرضوا لعقاب. فقد سيطرته على شمامي اللصاق وباقي الخدم الذين أصبحوا مستقلين. الأسوء من هذا هو أنه توقفَ عن تعاطي المخدرات، وانتهى به الأمر إلى أنه أصبح يؤدي الصلاة خمس مرات في اليوم. كان التغيير جذريا. كانت بمًا سعيدة لأنه استطاع أن يعمل كبائع أحذية في المدينة عند أحد أصدقاء أبي الزبير. تغير كل شيء. أصبح يصرعنا بأحاديثه الدينية. أصبح يذهب إلى المسجد أيام الجمعة ويجلس في الصف الأول، بجانب أبي الزبير الذي كان

أبو عبدو البعل
https://facebook.com/groups/abuab/

يلقي الخطبة. ترك لحيته تنمو وفقد بريقه. انتهى الغندور الذي كان يطير وينظم حياته و حياة الآخرين. حياتي أنا على الأخص. كنت قد كبرت وأصبحت قادرا على الدفاع عن نفسي، لكني كنت أفتقده. عندما كنت أمسك الكرة بطريقة مذهلة خلال اللعب، كنت أبحث عنه بعيني علّه يكون مستمتعا بمشاهدة لعبي من بعيد. كنت محتاجا إلى تصفيقه وصياحه وظهوره في الملعب ليضمني بين ذراعيه. لكنه لم يكن هناك. كان وقته موزعا بين الدكان والكاراج والبيت حيث لم يكن يدخل إلا وقت العشاء. انتهى أيضا الجو البهيج الذي كان يخلقه على المائدة، الحكايات المضحكة التي كانت تمتّع بمّا. كان يحدث أن ينزع ابتسامة من وجه والدي المحنط. كان يتهكم على إخوتي الكبار ولا يستطيع أحدهم أن يعقب لشدة ما كان ثرثارا وخفيف الروح. انتهى كل هذا. نجح في أن يزرع جوا من الصرامة والجناه شيئا فشيئا. أصبح يمنعنا من مشاهدة التلفاز ويُمطِرنا بأحاديثه عن المؤامرة الأمريكية- الصهيونية التي تصبو إلى خنقنا وإفسادنا وزرع الرذيلة في كل واحد منا. لم تكن بمّا تفهم شيئا و لم يمكن ممكنا حرمانها من مسلسلاتها المصرية أو البرازيلية. وفقط من أجل إزعاجنا أصبح يجهر بتلاوة القرآن في الغرفة المجاورة.

رغم كل هذا بقيت على حب حميد. كان ما يزال مَثَلي الأعلى، تماما مثل ياشين، أستاذي في اللعب. مع مرور الوقت قلّ دخوله إلى البيت. ثم انتهى به الأمر للاستقرار في كوخ قرب الكاراج، أعاره إياه أبو الزبير. عانيت كثيرا من رحيله بسبب الفراغ الكبير الذي تركه في البيت. كثيرا ما نهضت قبل الفجر لرؤيته قبل ذهابه إلى العمل. كان يصحبني عند بلكبير بائع فطائر لا مثيل لها. كان الرجل ذو الكرش الكبيرة يجلس خلف مقلاة ضخمة ويرمي دوائر العجين المدهونة بالزيت في الزيت الغليان. وكانت الفطائر تنتفخ مباشرة وتطفو فوق الزيت وهي تطلق رائحة زكية. كنا نشتري فطائر نستلمها على شكل عقد نأخذه معنا إلى المقهى حيث نطلب الشاي بالنعناع ونستمتع بالأكل. كان حميد يقول

إنه أصبح لزاما علي أن أجد عملا يوفر لي غذاءا متكاملا. وعد بأن يتحدث مع أبي الزبير الذي كان له أصدقاء في كل مكان. أخبرته أني موافق لأني كنت أحب الفطائر كثيرا. كان في بعض الأحيان يسد شهيتي عندما يتحدث عن جَهنّم منذ الصباح. كان يؤكد أنه في يوم الحساب سيُلقى الكافرون في مقالي الزيت الغليان، وأن جلودهم ستخلف في كل مرة ليستمروا في العذاب الأليم. كان الأمر يصيبني بقشعريرة. كنت أقول إني أؤمن بالله ولن أصير فطيرة أبدا. هكذا أصبحت صبي ميكانيكي عند أبّا موسى. حرفة وَسِخة مارستها بإتقان. ولأن نبيل كان بعاني من الضجر ويأتي ليحوم حول الدراجات التي أصلحها، تم قبوله أيضا. كوّنّا فريقا رائعا نحن الاثنين. حتى أن أبّا موسى الذي كان مدمنا على الكيف، اعتمد علينا وأصبحنا محترفين. كان المحل يتكون من غرفتين متداخلتين. في الغرفة الخلفية، الصغيرة والمظلمة والمفتقدة إلى التهوية كان يعيش المعلم. كانت تحتوي على سرير ومائدة عليها مذياع صغير يشتغل من الصباح إلى المساء وحقيبة يضع فيها متاعه. من السقف المنخفض تتدلى مصباح عار ضعيف الإنارة نصطدم به في كل حين. الغرفة الأخرى كانت ورشتنا، صندوق كبير يحتوي على الأدوات، عجلات قديمة، مسامير، براغي وكومة من الخردة المختلطة لحين الحاجة إليها. لكن في الحقيقة، عدا الأيام الممطرة، كنا نشتغل في الخارج باستمرار. سلمتنا الدراجة الهوائية كل أسرارها. ثم انتقلنا إلى شيء آخر، الدراجة النارية. الميكانيكا شيء مختلف، لكننا تشبثنا بها. في البداية كان موسى يعهد إلينا فقط بالأعمال البسيطة، ثم مع الوقت أصبح يكلفنا بالمهام الصعبة. إذا كان يسمح لنفسه بضربنا حالة الخطأ، فهذا فقط من أجل مصلحتنا. كنا نعرف ذلك. يحتاج التعلم في بعض الأحيان للعصا، وإن كان أبّا موسى يبالغ عندما يكون هائج الأعصاب. تعلمت أن أظل بعيدا، لكن نبيل كان يملك موهبة التواجد قريبا من يده. كان يحصد الكثير من الضربات. لكن في النهاية، يجب الذي يجب. تطلب الأمر عدة أشهر ثم أصبحت

الصنعة في يدنا. تعلمنا أن نفكك المحرك في أقل من لمح البصر، أن نشحمه ونبدل القطع التالفة ثم نعيد تركيبه. كنت أصل قمة النشوة عندما تتحرك الآلة من المرة الأولى وأذهب في جولة تجريبية على طرقات المزبلة. كان رفاقي يرونني أصل كالإعصار ويحسون بالغيرة. كان بعضهم يرميني بالحجارة وهو يصيح : «البرجوازي القذر !» كنت أشير إليهم بأصبعي الوسطى وأتابع سيري. كان المعلم فخورا بنا. تماما مثل أخي حميد الذي كان يأتي لزيارتنا ويحضر لنا الخبز وعلب السردين والبطاطس. كانت الأمور جيدة. في تلك الفترة كنت أحشو نفسي بالأكل منفقا نصف أجرتي. كنت أعطي الباقي ليمّا التي كانت تعيده لي بطرق عدة. كانت تشتري كرات الصوف وتحيك لنا السترات والقفازات والقبعات والجوارب ؛ كانت تشتري لي الأحذية الرياضية أو كل ما يسقط تحت يدها بسعر رخيص في السوق. ازداد وزني وطالت قامتي بعشر سنتمترات. كان كل شيء يسير على أحسن ما يكون. لكن في سيدي مومن، كلما كانت آلةٌ في حالة جيدة وعملت بمرونة، جاءت حبيبات الرمل وأتلفتها. الأمر حتمي. مكتوب بأحرف لا تنمحي في مجريات أقدارنا. إذا كان نبيل يمتلك رشاقة، فليس خطأه. إذا كان الرجال يلتفتون عندما يمر، فهو لم يختر أن تكون مؤخرته ممتلئة، ولا أن تكون بشرته بيضاء وشعره أملسا ومتموّجا. كلما تقدم في العمر كلما أثار رغبة الآخرين أكثر. لا أقول إني كنت منعدم التأثر بسحره. طبيعته اللطيفة والرقيقة كانت تسحرني بقدر ما تسحر الآخرين. لا أقول إني لم أفكر أبدا في ذلك الشيء، لكني كنت أطرد هذه الأفكار الكريهة بسرعة من ذهني. ذكرى الأمسية مع النجوم في كوخه لا تزال تصيبني بالدوار. كان نبيل متبوعا بنحس مُعْدٍ. أكيد أننا كنا في غنى عن التنقيب في المزبلة. أصبحت عندنا حرفة مريحة تدر علينا مائة درهم في الأسبوع وتضعنا في صفوف الأمراء. لم نفكر أبدا في التخلي عنها. لكن مؤخّرة نبيل المشؤومة لم تكن تجر علينا سوى الويلات. ذات مساء، بعد أن تأخر في

إصلاح إحدى الدراجات، دخل أبّا موسى بعد الصلاة وأنزل الستارة المعدنية. نزع جلبابه واقترب من نبيل الذي فهم مغزى الحركة. ظل محترسا وتابع عمله كأن شيئا لم يكن. كان صوت أبّا موسى رقيقا ومعسولا بعيدا عن الصوت السلطوي والبشع الذي ألفناه في النهار. انحنى عليه وقرص وجنتيه : «هل تعرف أنك غلام جميل !» دون أن يفكر لحظة، أمسك نبيل أحد المفاتيح في يديه الوسختين بسبب الزيوت وسدد ضربة قوية إلى صدغه. صوت أصم ومرعب، وسقط الرجل بكل ثقله على كومة الخردة. كان الذعر بلا شك هو الذي ضاعف قوة نبيل كي يضرب المعلم بهذا الشكل. كان بوسعه أن يكتفي بذلك ويرفع الستارة الحديدية ثم ينصرف. ربما كانت الأمور ستأخذ مجرى آخر. كان الصلح ممكنا في الغد، صفعتان وتعود الأمور إلى مجرياتها. لكن نبيل كان كمن ركبه عفريت وأمره بإعطاء وابل من الضربات للمعتدي الذي كان مسجى على الأرض في نصف وعيه. انحنى عليه، وبينما غشاوة سوداء تغطي عينيه، ضربه عدة مرات وهشم رأسه. وكأن ذلك لم يكن كافيا، أمسك مطرقة وسحق خصيتيه ضربة ثم أخرى وأخرى أيضا. كان يضرب الرجل وفي نفس الوقت يضرب القدَر الذي أدانَهُ، دفعة واحدة. كان الدم الذي ينضح يزيد من تهيجه. وواصل إلى أن أعياه التعب و لم يعد قادرا على أن يمسك الأداة بيده؛ ارتمى على المعلم واستلقى عليه فترة طويلة بلا حراك مثل وحش ممتلئ البطن ومتهالك على فريسته.

خفت عندما رأيته ساعات من بعد في بيتنا. كان وجهه شاحبا وثيابه مدرجة بالدماء وهو عاجز عن النطق بأية كلمة. أحضرت له كأس ماء وجلسنا على عتبة الباب. أخذ وقتا طويلا ليجمع شتات ذهنه، ثم بتلقائية صدمتني، قال :

– قتلتُ المعلم.

ظللتُ صامتا وساهما.

– هل أنت متأكد ؟

– ضربتُ بقوة على رأس الخنزير.

– ربما كان فقط فاقدا للوعي.

أحنى نبيل عينيه ولم يجب. أدركت أنه جاد وأن الأمر يعني أن مغامرتنا مع الميكانيكا قد انتهت. ذهبنا سويا لنشرح الأمر لأخي حميد الذي خلّصَنا، مرة أخرى مع أصدقاء الكاراج، من الورطة. دفن أبّا موسى في نفس الليلة في المزبلة قرب المكان الذي كان يستريح فيه مراد. ولتفادي أن يعثر أحد على الجثتين أوقدوا النار في المكان. كنا قد ذهبنا معهم وكان منظر النار في الليل جميلا. كانت النار تطقطق وتتلألأ. وألسنة اللهب تثقب السماء السوداء، ومن خلال تراقصها تحت أعين النجوم، كانت تُنزّه أطيافنا التي لا شكل لها فوق النفايات. تلا أبو الزبير وحميد صلاة. وددت مشاركتهما لكني كنت أجهل الكلمات. خفت أن تتسع رقعة النيران وحدثت حميد بالأمر، لكنه أبعد هذه الفرضية بسبب الأمطار التي سقطت بالأمس. لم أكن مستريحا. لكن في النهاية كان على حق. كان يعرف المزبلة أكثر من أي أحد آخر. كأنها قد تعبت، انتهت ألسنة اللهب وانطفأت على رماد مراد والمعلم. لم نتحدث كثيرا في طريق العودة. قرب دكان عمر الفحام، التفت أبو الزبير نحو أخي وقال له : «يجب أن تدعوهما إلى الكاراج! التقرب إلى الله سيسعدهما». وافق حميد.

عدا أحد أبناء العمومة الذي كان يزوره مرة في السنة، لم تكن لأبّا موسى أية عائلة. لم يسأل أحد عن اختفائه. عدا ذلك، فإن السكن في سيدي مومن أو الرحيل عنه، فجأة، لم يكن يثير العجب. يجيء الناس ويروحون دون أن نعرف لماذا. يعوضهم آخرون، يلتفون حول أنفسهم في الخراب المهجور، يرتجلون ويألفون ويرعون الكهولة كما لو من أجل تأمين استمرارية نوعنا.

بعد تنظيف المحل، أحضر لنا حميد صندوقا من الأدوات، رأى أنها قد تنفعنا لأننا كنا قد تعلمنا الحرفة. نصحنا بالمغادرة، وعدم الدوران في الجوار إلى أن تهدأ الأمور. وهذا ما قمنا به. ثم أخذت الحياة مجراها كأن أبّا موسى لم يكن أبدا.

11

لم تنظر غزلان بعين الرضا إلى إقامتي في كوخ نبيل. أظن أنها أحسَّت بالغيرة. كانت تتمنى لو تكون مكانه. يمّا أيضا عانت من رحيلي. بكت في اليوم الذي أعلنت فيه قراري. كان إخوتي قد غادروا الواحد تلو الآخر، منهم من ذهب إلى المدينة، ومنهم من ذهب إلى الجيش، ومنهم ثلاثة تزوجوا وأقاموا بيوتهم في دوار الشيشان. لم يبق سوى سعيد كي يساعدها. ولد ساحر، سعيد. ساذج شيئا ما لكنه لا يؤذي أحدا. بالكاد كنا نحس بوجوده. كأنه غير مرئي. لا يحتج أبدا. كان يجد طبخ يمّا لذيذا حتى عندما تزيد كمية التوابل. كنا نقيس مزاج يمّا حسب كمية الملح التي تضعها في الأكل. طاجين مملح يعني أنه يجب أن نلزم الحذر، وأن اليوم كان صعبا وأن أقل زيغ سيؤدي إلى ضرب مبرح. كان سعيد يقوم بالمهام الصعبة دون أن يشتكي. كانت يمّا تجور عليه، لم تكن تتوقف عن الصياح به لأنه لا يتقن فعل شيء. كانت في بعض الأحيان تحس بالندم فتدُسّ في جيبه ورقة مالية. «القليل من الهواء ! اخرج قليلا ! لا أريد أن تظل ملتصقا بي». كان سعيد يقوم بدورة في الجوار ثم يعود بعد ربع ساعة ليجلس قرب والدي ويشاركه لعب الداما. كان الشارع يُخيفه، فيحسّ بالاطمئنان أكثر في البيت مع مذياعه وجرائده القديمة. لم يكن يَضْجَر من حكايات والدي عن المقالع التي كانت تتغير حسب

مزاجه. كان يتتبع الأخبار باهتمام كما لو أن مصير الكرة الأرضية متوقف عليه. كان يعلق على الأحداث ويقدم تحليله المميز دون أن يعي أن الوالد كان شبه أصم وبمّا لا تفهم شيئا في السياسة. لكن كان من محاسنه التحدث في شيء آخر غير الهموم اليومية : «هناك تسرب في السقف»، «رائحة ماء السقاية عفنة»، «ارتفع ثمن الزيت والسكر والشاي»، «أصبحت القنوات المقرصنة بالمرموز...» كنت سعيدا لبقائه في البيت. كنت في السادسة عشر وكانت كتفاي أعرض من كتفي حميد. حان الوقت لأتصرف في حياتي مثل بقية أقراني. رتّبتُ مع نبيل عُشَّنا بأحسن ما نستطيع، كما حلمنا ذات يوم. منحنا أخي وسيده الأمير مبلغا لنتدبر أمرنا. مساعدة سخية تركت في داخلنا أثرا عميقا. استطعنا شراء فراش ووسادة وغطاء من الصوف وصفيحة متموجة لدعم السقف. استسلمنا لنزوة شراء مُشغّل كاسيت شبه جديد، لأن الجهاز القديم كان قد أسلم الروح. اقتسمنا المهام. تكلف نبيل بالطبخ وتكلفت أنا بالميكانيكا. وجدت إطار عربة سندتها بحجرين للدلالة على وجود مصلح. ونظرا لأننا كنا معروفين في المنطقة استرجعنا زبائن أبّا موسى. عندما كان نبيل ينتهي من عمله ويترك الطاجين ينضج على نار المجمرة كان يأتي لمساعدتي. كان يرقع العجلات المثقوبة خاصة. كان العمل يسير بفضل وفرة شقف القناني والبقايا المعدنية والحصى المدبب الذي كان يملأ الطرقات. كنت قد كونت مخزونا من المواد. كانت الدراجات النارية الخفيفة التي تُسرَق في المدينة تُفكك وتُباع قطعا عندنا بثمن لا يمكن منافسته. كنا نصرف جزءا كبيرا من مدخراتنا للحصول عليها. أصبحت معلما في إعادة التركيب والإصلاح. مهما كان المشكل كان الحل عندنا. وكان العمل متوفرا، لأن العجلات الهوائية في سيدي مومن كانت في حالة تستعصي على الوصف. حتى عندما تكون عتيقة ومتهالكة كنا نحصل لها على مشتر سعيد بتعذيبها سنوات إضافية. تماما مثل ما يحدث مع الحافلات التي تبيعنا إياها فرنسا بعد أن تكون قد أدت

خدماتها في البلد، والتي نستعملها عشرات السنين على الأقل لنمررها للأفارقة، حيث تقضي أياما سعيدة في الأدغال.

لم نعد نلعب الكرة كثيرا لكن كوخنا ظل مركز قيادة نجوم سيدي مومن. كان الأصدقاء يأتون في المساء ليؤنسونا. كنا قد أخذنا نشرب النبيذ الأحمر. كان رديئا لكنه كان يناسبنا. عندما يكون الدخل جيدا كنا نشتري البيرة. نشتري صناديق كاملة. كان خليل ماسح الأحذية قد أمضى فترة في السجن بعد أن سرق سائحا. كان يدعي أنه بريء وأنه وجد حافظة النقود على الأرض بعد أن انتهى من مسح حذاء السائح. لكن الشرطة لم تصدقه واستضافته في السجن ثلاثة أشهر. كان خليل مسعورا. كان يريد أن يهاجر إلى أوروبا، حيث يتمتع الناس بكافة حقوقهم. وإذا حصل أن اتّهِم أحدٌ جورا كان يحصل على تعويض كبير. نعم، كان يفكر جديا في جمع المبلغ ومغادرة هذا البلد السيء. لكنه كان يعرف الحكاية التي قصها أحد أقاربه عن مآسي المهاجرين السريين والتي لم تكن تشجع على الذهاب أبدا. على أحد شواطئ الشمال، بينما كان ينتظر دوره للعبور إلى الجزيرة الخضراء، اكتشف جثة أحد الأفارقة بعد أن لفظها البحر . كان عملاقا اختفت ملامح وجهه. كان قد فقد إحدى فردتي حذائه فاستغل السمك ذلك لقضم أصابع قدمه. من داخل عينه اليسرى رأى سرطانا يحاول الخروج. كان القريب قد رآه وتراجع عن الهجرة. قال : «أترون، حتى السرطانات لم ترض بهذا الأسود !»

لم يكن خليل يحب هذه القصة وكان يقول إن الموت يمكن أن يدركنا في أي مكان. على الرصيف، عند السقوط من السرير، أو عندما تغص اللقمة في الحلق. لم يكن يتراجع عن فكرته. كان يقول إن الشرطة جنس قذر لأنهم عذبوه ليعترف بجنحته. انتهى به الأمر إلى الاعتراف بخطئه لكن ذلك لم يكن صحيحا البتة. كان بإمكانه الاعتراف بأي شيء ليوقفوا التعذيب. هددوه بالفلقة إن لم يعترف. أخذوه إلى قبو مظلم وأروه الملقط الذي سيستعملونه لنزع أظافره والأسلاك الكهربائية التي

سيوصلونها بخصيتيه. لكن لطمتين وركلة كانت كافية. ثم وقع ووقع أيضا لأن السائح المعني كان قنصل فرنسا. في المحكمة، لم تدم الجلسة سوى خمسة دقائق لأن القضاة أيضا جنس وسخ. تماما مثل حراس السجن الذين أساءوا معاملته خلال إقامته الطويلة. كان خليل حاقدا على الكون كله ويتغير بمجرد أن يسكر. كنا نشتم القضاة والشرطة وكل قناصلة الكون. كنا ندعه يتكلم لأن ذلك يريحه. عندما تنفرج أسارير وجهه، كنا نتبعه في أحلامه، كنا نقطع رفقته مضيق جبل طارق في مركب بسيط وها هي إسبانيا تحت أقدامنا. آه! الأندلسيات الجميلات، قريباتنا المتخلى عنهن واللواتي ينتظرن فتوحاتنا القادمة. لكن باريس، وحدها كانت تستحق الاهتمام. كان خليل يعرض علينا «شانزليزيه»، «سان جرمان دي بري»، «ساكري كور» «برج إيفل» وأماكن أخرى. أسماء مزينة التقطها من هنا وهناك كنا نكررها وراءه كما كنا نفعل في المدرسة القرآنية ونحن صغار. كنا نصفق عندما يتسم لنا الحظ والثروة. كان خليل يصف عودته إلى سيدي مومن في عربة جديدة بجانبه شقراء وفي الخلف قيثارة كهربائية. التزوج من رومية سمنت بالهرمون كان أمرا يثيره. كان يُخرج عُضوه ويضرب به على الطاولة وهو يقول : «هذا جواز سفري إلى الجنة !» وكنا نضحك مثل صبية صغار. كان يريد أيضا أن يصبح فنانا. انبثق الأمر من مسلسل أمريكي شاهده على التلفاز فلبس جلد البطل و لم يشأ أن يغيره. عندما كان يثمل، كان يغني بلغة جديدة بلكنة إنجليزية. كان يرقص وهو يضرب في الهواء على حبال وهمية. كان نبيل يشاركه ويقول إننا يجب أن نكوّن مجموعة؛ وأننا سنشتهر كثيرا وينفتح العالم أمامنا. الموهبة تُسقط الحدود، هذا شيء معروف. لن نحتاج إلى تأشيرات، ولا تبريرات لولوج جنة عدن...

الأحلام هي الأخرى معدية.

كانت غزلان تأتي كل يوم جمعة لتطبخ من أجلنا. كانت تحضر قفة مليئة بالخضر مع لحم الخروف. كان نبيل يساعدها، ومعا يهيئان وجبة

ملوك. الكسكس بالشعير كان تخصصها. كنا نجلس حول القصعة ونأكل حتى الشبع. كان فؤاد يوافينا بعد المدرسة ويركن عريضته في الداخل.. كان يتصنع الغضب عندما نسرق الحلوى. كان يجري وراءنا في الدرب وكانت غزلان تضحك مثل طفلة صغيرة. كانت في بعض الأحيان تفاجئنا بإخراج حلوى تذوب في الفم من سلتها. كنا نأكلها في الخارج في الشمس. كانت غزلان تزداد جمالا يوما بعد يوم. كنت أنظر إلى ثدييها اللذين لا تستطيع الثياب الفضفاضة أن تُخفيهما. إجاصتان ناضجتان، تعلوهما حبتي زبيب تبرزان من الثوب المُطرَّز، وتبدوان حزينتين لعدم قدرتهما على الظهور بوضوح. كنت أتصورهما حزينتين، تلك الإجاصتين، وكنت أحلم بمواساتهما بألف مداعبة، بعَضّ جلدهما الطري، وإخفاء أنفي وعقلي ونسيان نفسي فيهما. كانت غزلان تلاحظ نظراتي الملحة وكانت تتجاهلها. كنت أعرف ذلك من حدقتيها اللتين تنتفضان خلسة وفي الطريقة التي تمسد بها شعرها. كانت فترة مباركة يتم فيها كل شيء بقدرة قادر. انتهى الأمر بعزّي إلى الانتفاض ومغادرة دكان والده. ذات يوم عندما رفع عمر الفحام يده ليضرب عزّي من أجل تفاهة، أمسكها هذا الأخير وشد عليها بقوة، وهو يعني أنه لم يعد يقبل أن يُضرَب، دون أن يحني عينيه. لحظة ذهول، لم تحدث من قبل في حياة الرجلين. وعى عمر الفحام فجأة أنه يفقد ابنه الثاني. كبر عزّي وأصبح أبيض لأنه هجر الدكان شيئا فشيئا. كانت قامته تتجاوز قامة والده. هو أيضا فهم أن القطيعة كانت حتمية. لم يكن مخططا لها، لكن الأمور كانت كذلك. راقب عمر بصمت رحيل ولده وهو جالس على مقعد بين أكياس الفحم، كان هادئا ومتعبا. عندما جاء عزّي عندنا بصُرّته، استقبلناه بتلقائية. كان الفصل صيفا والوقت مساءا ونحن جالسين على عتبة البيت ندخن الحشيش. كان القمر مستديرا وأبيض ولا تظهر فيه ملامح جلالة المغفور له. جلس عزّي قبالتي ورأيت الضوء الأبيض يَنْساب على وجهه الحزين. شاركنا التدخين وهدأه الأمر. تحدثنا

في عدة أمور دون أن نأتي على ذكر والده. مر وقت غير قليل وكنت أتخوف من تلك اللحظة. لكن لم يكن أمامي خيار آخر. لم يكن ممكنا أن أدع صديقي في الشارع. دعاه نبيل إلى الداخل، أشار إلى جلد خروف وغطاء ومخدة وقال له : «خذها، إنها لك». وأصبحنا ثلاثة في الكوخ. كان المكان ضيقا لكن أحدا لم يشتك. كان عزّي يحتاط كثيرا كي لا يزعجنا. كان يساعد نبيل في شغل البيت ويذهب إلى دوار سكويلة أيام السوق. كان يمضي بقية اليوم في القيام ببعض الأعمال البسيطة ليحصل على بعض المال ليساعد به في مصاريف البيت. كان نبيل وعزّي يتقاسمان غرفة، وكنت أنام في الأخرى. انعكست تصرفات أخي حميد علي لأني أصبحت رئيس الأسرة. هذه الهيمنة على أصدقائي حدثت من تلقاء نفسها دونما حاجة لفرضها. كانت قراراتي تتبع بالخرف لأنها كانت حكيمة (هذا ما كنت أظنه على الأقل حينئذ). لذا عندما دعاني حميد لحضور دروس أبي الزبير في الكاراج تبعاني دون أن يطرحا أسئلة. هكذا بدأ وُلوجنا عالما لم يكن عالمنا. عالم جديد غُصْنا فيه شيئا فشيئا وانتهى به الأمر إلى أن يبلعنا بصفة نهائية.

12

كان عدد أفراد مجموعة الأمير أربعة. وكانت أسماؤهم غريبة. تبدأ كلها بـ «أبو فلان». أسماء تُلامِس مباشرة إلى عهد الرسول. لأختصر، سأكتفي بذكرها بدون «أبو»: زيد ونصير والأخَوان عبيدة، أحمد ورضا.

الأمير زيد، أكبرهم سنا وأغزرهم علما بلا شك، خمس وعشرون سنة، كان يبدو أكبر من سنه بسبب لحية كثيفة تكتسح ثلاثة أرباع وجهه. كان يستعمل باستمرار نظارات بإطار بلاستيكي بُنّي كبير، ويضع على رأسه طاقية حيكَت باليد، ويرتدي رداءا أبيض؛ على الرغم من وجود انطباع بأن أي واحد من رفاقه يمكن أن يحل مكانه. هو من أصول شمالية، جاء إلى دوار الشيشان لسبب لا يعلمه أحد. كنا نجهل كل شيء عن عائلته وعن الطريقة التي استطاع بها إكمال دراسته. لكنه كان ضَليعا في عدة علوم، نسأله في كل المجالات ويجيبنا، وإن لم يستطع فقد كان يأتي في الغد بالجواب الأكيد. كان صوته خفيضا وعذبا، وكان سَمْحَ الخليقة، يضع يده باستمرار على كتف مرافقه، للدلالة على مشاعر الأُخوَة. عند رؤيته في الشارع، لا أحد يشك أن الرجل المتوسط القامة والبدين الهيئة كان في الواقع ضليعا في الفنون القتالية. كان قد حصل على درجاته خارج المملكة. يدعي البعض أن ذلك حصل في الصين وآخرون في اليابان، الأكيد أن ذلك حصل على بُعد سنوات ضوئية من

عندنا. كان أبو الزبير يحترمه، تماما مثل أخي حميد. كان زيد يهتم أكثر بالشباب مثلي وأصدقائي. تصرف مثل رجل نبيل واقترح أن يعلمنا الكونغ فو. فرح نبيل كثيرا. حلم دوما أن يكون قادرا على الدفاع عن نفسه، وها هو الأمير يقدم له ذلك على طَبَق من فِضَّة. كان يوقظني باكرا ويأخذني بالقوة إلى محل قُرب الكاراج حيث نتمرن وحيث أؤدي الصلوات الأولى، الشرط الضروري لحضور حِصَص التدريب. التحق بنا خليل ماسح الأحذية وعزّي وواظبنا على اللعب. كان بناء القاعة التي نستعملها صلبا وكانت بدون نوافذ. تغطي أرضيتها وجزءا من الجدران حصائر، وفي أقصى القاعة سجادة من حرير يجلس عليها زيد وفي يده سَبْحة يلفها على معصمه أوقات الدرس. كانت القاعة شبيهة بمسجد مُصغر. يعمها صمت شبيه بالصمت الذي يعم أماكن العبادة حيث نحس بحضور الرب أكثر. تحية الساموراي روجعت وعوضت بآية قرآنية. هكذا كنا نبدأ التسخين في حماس شبه ديني. ثم تأتي المقابلات الجماعية التي نحارب خلالها خصوما غير مرئيين باسم الله. كان علينا انتظار عدة أسابيع قبل أن نبدأ المعارك. لكن خلالها أيضا كنا نضرب على وجه أشخاص، إلا أن الضربات كانت تحبس قبل أن تصل إلى الخصم، الشيء الذي كان مختلفا عن شجاراتنا السابقة. تعلمنا ضبط النفس وتقنية التفادي والانضباط. لكن بمجرد أن يخرج زيد، كنا نرتمي على بعضنا البعض في صراعات عربدية. كنا نستمتع كثيرا بتقليد بْرُوس لي في جنون الانتصار. صنعنا سلاحه الرهيب : قطعتي خشب تربطهما سلسلة. علمنا نصير كل طرق استعماله. لم يكن الأمر سهلا في البداية. كنا نتلقى ضربات على الرأس والجسم. وكان ذلك يضحكنا رغم الألم. لا أنتظر ورودا، لكني أقول إنني خلال أسابيع أصبحت ضليعا في استعمال الأداة. أصبحنا نمضي وقتنا نقفز في الهواء، نقوم بحركات قتالية مثيرة، لكننا كنا بعيدين جدا عن قفز بْرُوس لي. كان نصير يقول إن طيران المعلم كان مجرد خُدعَة سينمائية لكن كان يصعب علينا تصديق ذلك. عندما

كانت أفلامُه تُعرَض على التلفزيون، كنا نجلس في المقهى ونشاهدها باهتمام كبير كأن الأمر يتعلق بمقابلة كرة قدم. مثل الأبطال، كنا نرغب في تصحيح الأخطاء، والانتقام للضعفاء، وإرساء العدالة. كان زيد يوافقنا الرأي ويتحدث عن وجود عدة طرق لتغيير العالم. كلها تتطلب استعمال الذكاء. كان يؤكد أنه لا يوجد سن للتعلم وطرد الظلام الذي يهددنا. أهم ميزة في الكونغ فو تتجلى في استخدام سلاح الخصم ضدَّه. لهذا كان بْرُوس لي رغم قصر قامته وضآلة بنيته ينجح في صرع خصومه. كان يقول إن الله عادلٌ ويحب العَدْل. لم أكن متأكدا تماما من ذلك وإلا كيف يمكن تفسير وجود أماكن مثل سيدي مومن ؟ كان زيد يقول إن الخطأ يعود للبشر الذين تخلوا عن الرسالة الإلهية. مهما يكن، فقد كنا متحمسين جدا ولم نكن نُفَوِّتُ أية حصة من حصص التدريب. كانت حصصنا تبدأ باكرا جدا، وكنا نستغل ذلك للتوضؤ والصلاة جماعة، في الفجر، بعد الأذان. لو رأتنا أمي لما أمكنها التصديق. أنا وحميد واقفان من الفجر وسط قاعة مليئة بالمصلين. كانت ستكون فخورة جدا وهي ترى كلينا يرتدي الكيمونو الجديد الذي أهداه إياه أبو الزبير. كان حميد يختارني كخصم في القتال وكنت أحب ذلك كثيرا. التحق بنا فؤاد لأنه يحب العراك كثيرا. ولأنه يسكن في دوار سكويلة فقد كان يضطر غالبا للمبيت عندنا. تنازلت له عن ركن في غرفتي ارتاح فيه كثيرا. أصبحنا الآن أربعة في مساحة ضيقة. كان ذلك يذكرني بالكوخ الذي كبرت فيه. عدا ذلك، كنا دائما خارج البيت. بين الرياضة والميكانيكا وأمسياتنا في الكاراج والصلاة خمس مرات في اليوم لم نكن نستطيع التنفس. توقفنا عن شرب الكحول لأننا لم نعد نجرؤ على ذلك. لفافة من حين لآخر، لكن خفية. وأيضا كنا جد متعبين في المساء لنفكر في شيء آخر سوى النوم. وأستطيع أن أجزِم أن الشخير كان وفيرا كأننا في فندق.

كان نصير قريبا لزيد. لكن هذه القرابة، للحقيقة، كانت ناتجة فقط عن كونهما ينحدران من نفس المنطقة قرب العرائش. كان الوحيد الذي

أنسجم معه من بين أصحاب الأمير. أكبر مني بقليل، حارس سابق لفريق الشيشان. كان ياشين أيقونتنا المشتركة نحن الاثنين. كان بإمكاننا التحدث عنه لساعات طويلة. لا بد أننا من قبل كنا سنتنافس، لكن ذلك أصبح من الماضي. كان ميالا إلى غزلان، لكنه ابتعد بمجرد أن علم أنها موعودة لي. كان يتفادى النظر إليها مباشرة عندما نلتقي أيام الجمعة بعد الصلاة. كان عددنا كبيرا ونحن نأكل الكسكس أمام الكوخ، وكان المتسولون يحومون حولنا فكنّا نعزمهم على قدر ما نستطيع. للحصول على الهدوء قررنا تخصيص طبق منعزل لهم. وإلا حصلت فوضى. كانت أصابعهم الكبيرة تحفر في السميد بحثا عن اللحم. كانوا يبدون أكثر جوعاً منا ويأكلون بطريقة سريعة. استقر فؤاد معنا نهائيا، فكان مبررا مثاليا لغزلان كي تزورنا مرتين في الأسبوع وأكثر أيام الأعياد. كانت قد صنعت من أجلنا ستائر من القطيفة وشراشف لم نجرؤ على استعمالها لعدم تعوّدنا. كان من السهل التكهن بوجود امرأة بسبب وجود أزهار بلاستيكية في مزهرية مذهبة جميلة وإطارات وضعنا فيها صورنا. أحضر نصير سجادة من الصوف أهدانا إياها زيد. كانت مناسبة للصلاة جماعة. أصبح كوخنا حفيا وساحرا. عندما يمنحنا حميد قليلا من البخور يصبح جنة. كنا نستمع إلى شرائط القرآن وأحاديث الحكماء المشارقة. كانت تثلج صدورنا. الأمير ورجاله كانوا ناسا بُسَطاء، يُشرّفوننا بالقدوم عندنا، ويشبعوننا نورا وسلما. كان حميد فخورا بي؛ عيناه كانتا تشهدان بذلك. في بعض الأحيان كان أبو الزبير يلحق بنا. وكان ذلك انتصارا على حياتنا البسيطة. كنا نتلقف كلماته لأننا نفهمها. استطاع أن يعيد لنا كرامتنا بكلمات بسيطة، كلمات لها أجنحة تحملنا أبعد مما يستطيع خيالنا. لم نكن طفيليات، ولا حُثالات بشرية، ولا نكرات. كنا مستقيمين وخليقين وكانت تطلعاتنا تجد صداها في عقول سليمة. وجدنا من يسمعنا ويرشدنا. وبدلا عن الضرب وجدنا المنطق. فتحنا الباب لله فدخل قلوبَنا. انتهت الثرثرة غير المجدية والشتائم والعراك

السخيف. انتهى زمن العيش صراصير على فضلات الخارجين عن الدين. سُحْقا للاستسلام الذي حقنه في عروقنا آباء جهلة. تعلمنا أن نُجمِّع جهودنا، وأن نرفض بشكل قاطع مرحلة اليرقات التي كنا محكومين بها إلى الأبد. كنا نعرف أن الحقوق لا تُمنَح، بل تُنتَزَع. وكنا مستعدين لكل التضحيات. أصبح يوم الجمعة يوم عيد حقيقي في سيدي مومن. كانت غزلان حزينة لأنها لم تعد مقبولة في دائرتنا. لكنها استمرت تأتي لتطبخ الكسكس ثم تعود إلى بيت أمّي للاّ. كنت أتألم للأمر لكني لم أظهر شيئا. كنت أوافيها في بعض الأحيان إلى دوار سكويلة. كانت تقول إني تغيرت وتعاتبني على هجري لوالديّ. كان الأمر سيئا لأن أمي كانت تعيسة. لم أكن قادرا على أن أشرح لها حالتي. كنت أكتفي بأن أقول لها إن الله كبير وسيصلح الأمور. كانت تقول إن الأمر بيدي ويظل الآباء مقدسين حتى وإن كانوا سيئين. كانت أمّي للاّ تؤكد أن الجنة تحت أقدام الأمهات، وأنه للولوج إليها، يجب الركوع لتقبيل باطن قدمي الأم كل صباح. كانت غزلان ترى أن اللحية تضفي قسوة على وجهي وأنها لا تلائمني البتة. وَعدتُ أن أحلقها. لم تكن واجبة. تركت اللحية تنمو فقط تشبُّها بزيد. كنا جميعا نسعى لتقليد زيد. اشتكت من شقيقها الذي يضايقها كي تغطي شعرها. لم أكن موافقا، وإن كان ذلك لن ينقص من جمالها شيئا. وعدتها بالتحدث معه وقلت إنه ليس من داع لتستاء من ذلك. أكيد أن شعرها الجميل لم يكن يستحق أن يُحبسَ في خِرْقة. و لم أكن أرى من إثارة في ذلك. فاتحتُ زيد في الموضوع ذات مساء بعد الصلاة. أجابني أن المرأة التي تريد أن تثير الإعجاب ليست جديرة بالاحترام لأن الإغْوَاء مجال الشيطان. وأن الأمر يتعلق بقيمة موروثة من الأسلاف يحاول بعض سيئي النية إنكارَها. أضاف أنه من أجل الحفاظ على هويتنا يجب إتباع الطريق الذي رسمه الرسول محمد صلى الله عليه وسلم. أثناني كلامه عن المضي أبعدَ من ذلك. لكني كنت أرى أنه في مجال الإثارة يبقى مفعولُ العينين أكبر من

مفعول الشَّعَر؛ لكن، على هذا النحو، كان البُرقُع هو ما سيفرض. الأفضل الاكتفاء بالحجاب الذي يمكن أن نغش فيه قليلا، حسب الطريقة التي يوضع بها. على العموم، لم تكن بعض المناديل الملونة سيئة. أخيرا، طلبت من فؤاد أن يترك أخته وشأنها، كان الأمر أكثر بساطة.

هكذا مرت أسابيع وشهور ونحن نعيش مع بعضنا. كل شيء كان محسوبا وموزونا. كنت تقريبا قد استغنيت عن الميكانيكا لأن أمسياتنا في الكاراج كانت تستمر لوقت متأخر. حفظنا القرآن عن ظهر قلب. لم يكن الأمر صعبا. كان أبو الزبير يتعمق في تفسير أوجهه الكثيرة ويندفع في شروح وتعليقات ممتعة. أصبحنا على علم تام بحياة الرسول. كانت قلوبنا تَخْفق على إيقاع غزواته التي رسمها الله في السماء. كنا نعرف أن الحرب التي يقودها الصليبيون واليهود ضدنا مستمرة بطريقة خفية. وعلنا في بعض الأحيان. كان الجهاد خَلاصَنا الوحيد. الله يأمرنا به. كان مكتوبا بوضوح في أم الكتاب.

13

كان الأخوان عبيدة تقنيين لا نظير لهما، قادرين على تفكيك وإعادة تركيب أية آلة. كانا يصلحان كل ما يقدم لهما: مذياع، تلفاز، محرك أطباق هوائية، مُجَفِّف شعر، ساعة، حاسوب، كل شيء. وكل ذلك مجانا. لا داعي للحديث عن الزحام أمام باب مقهى الإنترنيت الذي فتحاه في مدخل الحي. كانت الأجهزة المختلة كثيرة في سيدي مومن. عدا ما كان يوجد في المزبلة، كانت الأجهزة المستوردة من آسيا، الجميلة الشكل والرخيصة، تتوقف عن العمل باستمرار. لم يكن الرحلان يرفضان تقديم أية خدمة. استجابة لطلب حميد، وافقا على تشغيل فؤاد الذي تعب من بيع الحلوى أمام باب المدرسة. أصبح حارسا للدكان، منصب أوجد بسبب الظرفية، لأن أحدا لم يكن ليفكر في سرقتهما بسبب شهرتهما. لو لم تكن الانتخابات تقف أمام أبواب السور (لأن الناس فقدوا كل ثقة بها)، لربحها الأخوان عبيدة بجدارة ولأصبحا رئيسين مدى الحياة لسيدي مومن، كما يحدث في كل دولة عربية تحترم نفسها. أخيرا، أصبحت لفؤاد أجرة تهبط عليه كل أسبوع وغيّر هذا الأمر حياته. اشترى دراجة هوائية أعدتُها جديدة بعد أن جهّزتُها بمرآة وجرس بِرنَّتَين ورفرف عجلات وجدتها عندي في الكوخ. كانت غزلان سعيدة جدا، وكانت تقبل يدي أخي حميد كلما التقت به. وجد

خليل ماسح الأحذية هو الآخر عملا في مطبعة أحد أصدقاء الأمير زيد في المدينة. عمل هادئ، بعيد عن صبيان المقاهي والبلطجية المبتزين وهراوات الشرطة. كان من حقه مغادرة الورشة أوقات الصلاة، لكن الأهم هو أنه كان يشارك المستخدمين الأكل. هذا الشيء لم يتخيله أبدا ولا حتى في الأحلام. ثلاث وجبات كاملة في اليوم ! وكان من الصنف النهم. لم يكن فقط يأكل حصته، لكنه كان يأتي على بقايا حصص الآخرين. كان ينظف الصحون بلُقَيْمَات الخبز ويفرغ كؤوس الكوكا حتى آخر قطرة. أما أنا ونبيل فقد تركنا الميكانيكا نهائيا وأصبحنا ساعيين عند أبي زبير. كنا سعيدين بخدمة الشيخ. وكان الكثيرون يحسدوننا على هذا القرب. كنا نهتم بشؤون الكاراج وكان نبيل يتكلف بالشاي.

كانت يمّا، مثلها مثل باقي عائلات الملازمين للكاراج، تتلقى يوميا قُفَّة من المواد الغذائية، وكانت تجد الفرصة لتشتكي من ندرة زياراتنا. أحضرت لها ذات يوم خروفا لأن العيد كان على الأبواب. بكت ليس فرحا بالكبش ذي القرنين الكبيرين الذي كان يتخبط لكن من التأثر الذي أحدثه حضوري. بعد أن رأتني بالرداء الأبيض وبلحية على الطريقة الأفغانية اعتبرتني حميد. لامت نفسها وظلت تبكي. ثم تدفقت مشاعرها أكثر عندما وصل أخي بعد العصر. أصبحت يمّا قليلة الكلام وتبكي لِلاَ شيء. يبكي المتقدمون في العمر بسرعة لازدياد إحساسهم بالزمن الذي يمر. يتأثرون لأقل شيء.

الآن وقد أصبحتُ فوق، وأنا أستعرض حياتي الماضية كأني أحل كرة صوف مليئة بالعقد، أقول لنفسي إنها كانت قد خَمَّنت النهاية الحتمية لمغامرتنا. رغم أنها كانت تجهل كل شيء عن الورطة التي ألقينا فيها أنفسنا. ربما تعلق الأمر بالحاسة السادسة التي تتحدث عنها أمّي للاَ. على كل حال، دخلت يمّا المطبخ لتحضر الشاي وظلت هناك أكثر من اللازم. لم تكن تريد أن تؤلمنا. وعدناها، أنا وحميد، بالمجيء لذبح الخروف يوم العيد فابتسمت. كان الأمر ممتعا أن نراها تبتسم. كان سعيد فرحا لرؤيتنا

كي يزعجنا بتَذمُره من السياسة. العراق، أفغانستان، الشيشان، رواندا، كل شيء يمر في العرض. كان يُرصّعُ خطابه بالزلازل أو الأوبئة القاتلة أو التسونامي. كنت أتفادى النظر إلى حميد كي لا أنفجر بالضحك. كان أبي يعطس باستمرار وهو يستنشق الطابا الرديئة. منحني نفحة لأول مرة، دلالة على أني أصبحت راشدا في نظره. قبلت رغم أني لم أحب ذلك. وعطسنا معا. بأخوة. عندما رأى حميد أنفي الملوث بالمسحوق وعينيّ حمراوين، أطلق ضحكة مدوية كما كان يفعل من قبل. مضى زمن بعيد منذ سمعته يضحك. حينئذ ضحكت بدوري. ثم ضحكنا جميعنا. كان ضحكا نابعا من البطن والقلب معا. ضحك من كان مفتقدا إلى الضحك حيث السبب لا قيمة له، ضحك أسعدنا بشكل فظيع. استمر الأمر وتضاعف حتى أصبح ضحكا عصبيا. ثم عادت يمّا إلى البكاء. لم نعرف إن كانت دموع حزن أو فرح. على أي، كانت تبكي وتضحك في نفس الوقت. ثم انتقلت إلينا العدوى وفعلنا مثلها. بكينا وضحكنا حتى أروينا غليلنا. كان ضحكا عائليا. كان أبي يطلق صرخات عصفور فخفت أن يختنق. قال إن علينا أن نجتمع غالبا كي نضحك، حتى وإن لم يكن الظرف الدولي مُواتيا. ثم أطلق حميد ضحكته المألوفة.

كانت آخر مرة أرى فيها والدي.

كانت فترة كنا فيها مشغولين جدا. ذات مساء، جاء أُناس لم أكن أعرفهم إلى الكاراج للتحدث مع الشيخ. طلب منا أبو الزبير، الذي كان عادة يُصْرفنا عندما يستقبل أناسا مهمين، أن نبقى. أحسستُ أنا ونبيل وحميد بالرضا، لأننا اعتبرنا الأمر ترقية في سعينا للتقرب من الشيخ. أصبحنا الآن جزءا من دائرة المقربين. استشارنا أبو الزبَيْر حول عدة مواضيع وبدا أنه يهتم برأينا. كنت صامتا خوفا من أن أقول أشياء غير مناسبة، لكن نبيل لم يكن يزعج نفسه وكان يطلق إدانات صريحة

للاعتداءات الأمريكية أو الإسرائيلية. كان أبو الزبير يوافقه الرأي، وكنت أشعر بالغيرة، أعترف بذلك. من حسن الحظ أن أخي حميد كان حاضرا ليرفع راية العائلة عاليا ويُزَايِد. ركز أكثر على الصليبيين واليهود. وأكثر من هذا، تناول الأنظمة العربية التي كانت بلا كرامة، والتي كانت تنحني أمام أسيادها الغربيين، من أجل ضمان استمرارية دكتاتورياتها. كنت أهز رأسي موافقا وكنت أجد أن حميد كان مُحقّا.

كان جهاز التلفاز مفتوحا على قناة تعرض ثم تعيد عرض مجازر المسلمين. ولا أخفيكم أن داخلنا كان يغلي. مات الطفل الفلسطيني بين ذراعي والده مئات المرات. وفي كل مرة يموت فيها، كانت عيوننا تفيض من الدمع. كان الحنق يخرج من كل مسام جلد جسمنا المشدود بينما العرض يعيد المجزرة المرة تلو الأخرى. كنا نرى الجنود المُدجَّجين بالسلاح يطلقون النار عشوائيا على من يضربونهم بالحجارة وكنا نرغب في خنقهم. كان الطفل قد مات، لكن الأب لم يكن يرخي قبضته، كأن الطفل لا يزال حيا. كأن الصرخات التي أطلقها قبل لحظات ما تزال تمزق ضجيج ضربات الرصاص وصراخ الناس المذعورة. قال أبو الزبير إن علينا أن نتصرف. لم يكن الرسول ليقبل إهانة مماثلة. كنت جالسا القرفصاء أمام الشيخ، وكنت أحس بالنار تصعد من جوفي وتشتعل في عيني. كانت الر‍..ة في الانتقام تلوي أمعائي. كنا مستعدين لأن نسترد بالدم شرفنا المفقود. لم نكن فاقدي أذرع ولا جبناء. ولا خِرقا يمسح بها الكفرة البشعون والخونة من بلادنا أرجلهم.

كان أصدقاء أبي الزبير يراقبوننا وهم يحسون بالرضا. أحدهم، وهو زعيمهم بلا شك، رجل ناضج بقامة مَهِيبة، يضع عمامة ويرتدي جلبابا أبيض، كانت تنبعث منه رائحة الصندل كتلك التي كان حميد يحضرها من أجل يمّا. أغلق عينيه وألقى خطبة. كانت الخطبة تتحدث عن الأمل والجهاد والنور. طالما يوجد رجال بقيمتنا، شبان وشجعان ومقتنعون، فإننا لم نفقد كل شيء. لن يخسر جنود إبليس شيئا وهم ينتظرون.

سيدفعون أضعاف أضعاف ما يلحقونه بنا. سنحول حياتهم جحيما. ستصبح ترساناتهم المتطورة متساقطة ومضحكة. الله معنا والنصر حَليفُنا. نحن نملك أسلحة لا يملكها الكُفَّار، إنها لحمنا ودمنا. سنُعيدها لله لأنه يأمرنا بذلك. سنتلقى جزاءا على قرابيننا. أبواب السماء مفتوحة في انتظارنا. ليس أمام العُصاة سوى أن يرتعدوا في زرائبهم القذرة، في فسوق حياتهم الحقيرة، في الفساد الذي يُلقِّحُون به أبناءنا ... ثم صمت. وهو يُملّس لحيته، قال الشيخ : «لا نستطيع أن نفعل شيئا ضد من يُريد أن يموت !»

بعد صلاة جماعية مد يده فقبلناها الواحد تلو الآخر. ولم نرد مرة أخرى في الكاراج.

لازم وجه الشيخ أفكارنا فترة طويلة. أتذكر الحادثة الغريبة على عتبة الباب قبل انصرافه. انحنى أبو الزبير وقبل بلغته كأن الجنة توجد تحتهما. ساعده الشيخ على النهوض وضمه بين ذراعيه. همس في أذنيه شيئا لم نسمعه. لكن بعد عودته، كانت عينا أبي الزبير حمراوَيْن كأنه كان يبكي.

14

ذات مساء، جاء حميد إلى الكوخ وأعلن عن خبر سعيد: أبو زبير يمنحنا عطلة؛ هذه كلمة غريبة عن قاموسنا. كان رنينها دافئا في آذاننا ! لكن الذهاب في عطلة يفترض أننا عملنا بجد وأن أجسادنا محتاجة للراحة؛ الشيء الذي لم يحصل منذ مدة. كانت الحياة في الكاراج مريحة: كنا نقرأ القرآن، نصلي، نستمع، نأكل كما يجب وننام. كنا نعزل عن المجتمع، كأننا في شرنقة، نستمع إلى حكمة الشيخ وقلوبنا المطمئنة. مهما يكن، كان القرار قد اُتخِذ وكنا سعيدين بذلك. كل شيء كان قد نظم ورتب في أدق التفاصيل : ستأتي شاحنة صغيرة وتقلنا إلى الجبل لأن أبا الزبير كان راغبا في مكافأتنا على مداومتنا على حضور دروسه. أخذ نبيل يرقص وسط الغرفة. لم يكن يستطيع التعبير عن فرحه بطريقة أخرى غير الرقص. أخبرنا حميد أننا مدعوون كلنا وسنبقى أسبوعا كاملا. سمح لخليل وفؤاد بالتغيب عن المطبعة ومقهى الإنترنيت دون خَصْم من أجرتهم. ثم أضاف «الهدية هي الهدية !» تلك الليلة استعصى عليّ النوم وكذلك كان حال نبيل وعزّي لكثرة ما أثارتنا فكرة السفر. رتبنا حقائبنا بطريقة لائقة، أدوات النظافة، الكيمونو، والجلابيب في حالة برد الجو في الأعالي. كانت أول مرة أغادر فيها سيدي مومن وأركب شاحنة. الأمر كان مختلفا بالنسبة لخليل لأنه كان متعوّدا على عربات الشرطة.

وصلت الحافلة الصغيرة في الساعة السابعة أمام دكان الأخوين عبيدة، كما كان متفقا عليه. كنا حاضرين لأن لا أحدا منا كان راغبا في الغياب عن الموعد. أخذنا أماكننا خلف الأمير زيد الذي أخفى عنا موهبته كسائق. كان بالسيارة ثلاثة صفوف من الجلد الأسود. جلست في الأمام لأستمتع أكثر بالمشاهد التي أراها. سيستغرق السفر يوما كاملا. فسر الأمير زيد : «الأطلس المتوسط ليس قاب قوسين من هنا». غادرنا سيدي مومن في الحال. كان الجو حارا، لكن ليس داخل الحافلة التي تُقِلُنا والتي كانت مجهزة بمكيف *الهواء*. هذا يعني أنه كان ممكنا الانتقال من الصيف إلى الشتاء بمجرد الكبس على زر. قطعنا الدار البيضاء، ومر الأمير على أكبر شوارعها ليرينا أنفا، الحي الأكثر غنى في الدار البيضاء. يصعب علي وصف هذا الجزء من المدينة لأننا لم نر منها شيئا كثيرا. بالكاد كنا نتصور وجود المنازل الفخمة عبر الأسوار التي تغطيها نباتات كثيفة تتخللها بعض الزهور الغريبة؛ أجراس بنفسجية، حمراء أو صفراء، غير بعيد، باقات متعددة الألوان ذات أشكال غريبة؛ لفت إعجابي أزهار صغيرة بيضاء ذات رائحة مُدهشَة. فتحت النافذة لأشم شذاها أكثر. أوضح الأمير الذي كان يعرف كل شيء أن الأمر يتعلق بأزهار الياسمين. وجدت الاسم مناسبا جدا للزهرة وقلت : «أحب الياسمين كثيرا». تساءلت لماذا لا تنمو هذه الأزهار عندنا بما أننا كنا نتوفر على الأرض والماء وأنه كانت تكفي بعض الشتائل لتزين حياتنا. يزرع الكثير من الناس النباتات أمام أبواب أكواخهم، لكنها ليست بنفس الجمال ولا نفس الرائحة. ربما كان القرب من النفايات لا يناسب الياسمين. زهرة رقيقة كانت ستنتحر بسبب رائحة النفايات الخانقة. ستكون إهانة لرقة عطرها. كنا نحس أننا نطير ونحن نسير. لم نحس بالاهتزاز لعدم وجود حفر في الشوارع التي زفتت حديثا. كانت الطرقات عريضة ونظيفة. سيارات منبثقة من المستقبل كانت متوقفة هنا وهناك. كان الأمير يقود ببطء ليفسح لنا المجال للاستمتاع بجمال المكان.

ثم توجه نحو الكورنيش ورأينا البحر. كان منظرا فريدا. سبب لي الهواء الجديد دوارا في الرأس. كانت رائحته غريبة. أحسست بارتعاشة وأنا أتأمل مساحة لا متناهية من الأزرق الفضي والشمس البيضاء تطفو فوقها. نوارس أقل غباءا من نوارس سيدي مومن تتبع باخرة تقل بلا شك أناسا إلى إسبانيا. كان خليل يراقب الباخرة، وكنت أعرف أنه في ذهنه كان بداخلها. كنا نسمع قصصا عديدة عن مهاجرين سريين اختبئوا في قعر سفن الشحن من أجل مغادرة الوطن. لكنه، هو، كان يفضل أن يهاجر على السطح، في ضوء النهار. كل شيء في ذلك الجو كان يشع بالسعادة. رغم أننا لم نكن بعيدين جدا عن سيدي مومن. ربع ساعة على الأكثر بالسيارة. مهما يكن، فلم تكن حافلاتنا تؤمن مواصلات لهذه الأحياء الجميلة لتفادي أن يلوث أناس من طينتنا هذا الفضاء الجميل. شيء أفهمه جيدا لأننا كنا غير قادرين على الاحتفاظ بمكان نظيف. والياسمين مثل الأجراس كانت ستقطف وتباع في باقات. أو كانت ستقلع فقط من أجل أن تقلع. كنا سنسطو على المنازل رغم وجود حراس بعصيهم الكبيرة على رأس كل منزل منها. وربما قام بعض الحساد بإضرام النار فيها. قال الأمير زيد إننا في تحصينات عملاء الشيطان. وإن العصاة الذين يتحصنون فيها يملكون ثلاثة أرباع ثروات البلد. وإننا إذا كنا نعيش في الفقر المدقع فبسبب هؤلاء المصاصين الذين عاهدوا الشياطين الغربيين لاستغلالنا وجعلنا نعيش في تبعية مطلقة. بدونهم سنموت. لكنهم بدوننا هم أيضا محكومون بالموت. لأنهم يحتاجون أذرعا وديعة ودما لامتصاصه. يقتلوننا ببطء. لكن ، إذا كان الموت هو الموت، فمن الأجدر أن نأخذهم معنا ونتخلص منهم نهائيا...

لم يسبق أن رأينا الأمير غاضبا بهذا الشكل. لاحظ ذلك وتابع على نحو هادئ، لكن النور ظل يشع في عينيه : «يجب أن نتحد ونطلب المعونة من الله. لِحانا تخيفهم. أظهروها ! وليختبئوا في أقفاصهم الذهبية مع ذرياتهم السافلة وزوجاتهم الفاسقات وضمائرهم الفاسدة.

مهما مدوا على أرائك وثيرة كروشهم وعتقوا عرق جبيننا بهدوء، سينتهي الأمر إلى أن يصبح الشارع ملكا لنا. وسيحاسبون بطريقة أو بأخرى، في الدنيا أو في الآخرة ! لن نسامحهم». ثم قرأنا، جماعةً، آية قرآنية تصف فظاعة ما ينتظر الكفار في الجحيم.

بعد جنة أنفا الشيطانية، عبرنا فوضى المدينة. لم يتبقَّ في ذاكرتي سوى ذكرى أناس حانقين مسرعين يستعملون أبواق السيارات باستمرار. السائقون يتشاجرون ويلوحون بقبضاتهم. الراجلون يعبرون كيفما اتفق، وحيثما اتفق ويصيحون عندما لا يفسح لهم المجال. رجال الشرطة يصفرون بلا توقف ولا يعيرهم أصحاب السيارات اهتماما. كان الأمير قد هدأ، وأصبح يقود بحكمة. لاحظت أن الناس في المدينة لا يختلفون عنا كثيرا. ثم سلكنا طريق فاس مارين عبر الرباط. لابد أني كنت متعبا جدا لأني نمت طيلة الطريق. عندما استيقظت، وجدت رأس نبيل على كتفي. كان يشخر قليلا. لم أتحرك مخافة إزعاجه. هو أيضا لم ينم طيلة الليل. بعد فاس، سلكنا طريقا صغيرا يؤدي إلى إيموزار، منطقة غريبة كانت البيوت فيها ذات أسقف مدببة. وضح الأمير أن الشتاء يكون قاسيا في المنطقة وأن هذه الأسقف تسهل إزالة الثلج. قلت في نفسي إنه حالة المشاكل، نظرا لانحدارها، لن تستطيع لا الأغصان ولا الأكياس البلاستيكية تغطية الشقوق. توجهنا نحو غابة عميقة، وسلكنا مسالك محدبة ووقفنا في مكان ما. سرنا حوالي مائة متر ثم فجأة لقينا بحيرة. مساحة عظيمة من الماء، كأنها بحر صغير تحبسه الجبال. قال لنا : «هذه ضاية عوا. أجمل مكان في البلد» قلت في نفسي، إنه بالإضافة إلى ميزاته الدينية فقد كان الأمير شاعرا أيضا. أخرج من صندوق الشاحنة عدة خيام وأرانا كيف ننصبها بواسطة الأوتاد. كان الأمر مسليا ! أغرقنا في الضحك لأن محاولاتنا الأولى باءت بالفشل. في الأخير ساعدنا الأمير وحصلنا على مخيم حسب القواعد. لأنه كان علينا أن نكون اثنين في خيمة، اخترت أنا ونبيل أن نكون معا. احتج عزّي لأنه لا يرغب

مشاركة فؤاد نفس الخيمة بحُجَّة أن هذا الأخير يشخر، لكن لم يكن أمامه خيار آخر، حميد وخليل كانا قد اتفقا. بسطنا بعض الأغطية. كان الظل لطيفا في الداخل و لم أشعر برغبة في الخروج . كان عزّي هو المعين لإشعال النار. حتى مع عدم وجود الفحم لم يتطلب منه الأمر وقتا طويلا. شاركنا في إعداد الطعام لأننا كنا جائعين جدا . هكذا بدأت عطلتنا على ضفاف ضاية عوا.

ستظل الأيام التي أمضيناها في الجبل أحد أسعد ذكريات حياتي القصيرة. لم أكن قد رأيت من قبل عددا من الأشجار يتمركز في مكان واحد؛ كانت كبيرة ومهيبة وتداعب بأغصانها الخضراء الغيوم القليلة المتفرقة. كان الأمير يعرف أسماءها شجرة شجرة. أرانا الصنوبر الظلي والأكالبتوس بقشرته التي يتخللها الصمغ والتي تستطيع جذورها أن تمتد بعيدا بحثا عن الماء. ثم العديد من الأصناف التي تعيش بهدوء على ضفاف البحيرة. كنا نستيقظ باكرا في الصباح. بعد الصلاة التي كانت تطول، كنا نحضر القهوة ونشربها معا حول النار. كنا نتسلق إلى قمة الجبل ونقوم بتمارينا. كانت تدوم عدة ساعات : تسخين، كاتا، معارك... ثم الصلاة والصلاة. كانت أجسامنا المنهكة تتواصل مع السماء والأرض والماء والعصافير التي تأتي لتظل بصحبتنا. كنا قريبين جدا من الله ولا بد أن العصافير كانت تحس بالأمر لتزقزق على ذلك النحو. كلما قرأنا المزيد من السور كلما تضاعف غناؤها. وكان المجموع يؤلف باقة نضعها بتواضع أمام يدي الرب. عندما كان الأمير ينهي خطبه وننتهي الواحد تلو الآخر من لعن الشيطان وحزبه كان يأمرنا أن نتبعه في جري لا ينتهي. كانت قوانا تخور ولا يستطيع أحد مجاراة إيقاعه. كنا نعود إلى المخيم زحفا على رُكَبنا. كان خليل يجري نحو الماء ثم يغطس مثل سمكة . ثم يتبعه الباقون وهم يصيحون وكنت أشعر بالغيرة لأني لا أعرف العوم. كنت أكتفي بوضع قدمي في الماء وبرشّ وجهي بالماء. لم يكن الأمير زيد يتركني وحدي. كان يجلس

بالقرب مني على الحافة وكنت أستمع باستمتاع إلى أحاديثه عن إنجازات الرسول وأصحابه.

في اليوم الثالث، وافانا أصدقاء للأمير. لم نكن نعرفهم ولكنه بدا أنهم كانوا يعرفوننا. كانوا يظلون برفقتنا طيلة اليوم وجزءا من الأمسية ثم ينصرفون ليعودوا في الغد مع الفجر. كانوا يتدربون ويجرون ويأكلون ويصلون معنا. كنا نقوم بنزهات في الغابة ونشأت بيننا صداقات. لم يكن جابر، وهو رجل طويل القامة، مربع الوجه حيث تشع عينان كبيرتان وثاقبتان، يوحي بالثقة للوهلة الأولى. لكنه كان ودودا ويبدو كأنه يعتذر عن شكله المهيب. أصبح صديقا لي. كان من ميزات سعد، قريبه، لحية تصل إلى حد الصرة. تناغم مع نبيل. الآخران اللذان نسيت اسمهما تصاحبا مع خليل وعزّي وفؤاد وأخي حميد. علّمنا جابر في بعض الحصص استخدام السكين مثل محاربي عصر الجهاد؛ علمنا الوضعيات المختلفة التي يجب أن نأخذها عند تلقي الهجوم. وأيضا كيفية استباق هجوم مرتقب. الطريقة التي يجب أن نغرز بها الشفرة والاتجاه الذي يجب أن نوجهها نحوه؛ دوران المعصم في لحظة معينة يحدد درجة العقوبة التي نريد أن نلحقها بالخصم. كنا مسرورين جدا. كنا منتبهين جدا لأن الأمر كان مسألة حياة أو موت. تدربنا في البداية بسكاكين من قصب، لكن في نهاية الأسبوع خضنا معارك بسكاكين حقيقية. كان الأمر مثيرا جدا. أُصبْنا ببعض الخدوش الطفيفة. كنا تلاميذ نجباء وحصل كل منا على هدية عبارة عن سكين تبرز شفرته بمجرد الضغط على زر. قطعة جميلة ؛ حلمت بها دوما.

كان الليل يحل بسرعة في إيموزار. عند استيقاظ الصراصير، وعندما تكون الجبال ما تزال مغطاة برداء أسود. كنا نجتمع حول نار المخيم ونُسَبِّح الرب. كنا نصلي ونستمع إلى الأمير يتوسع في حديثه عن ملاحم ماضينا المجيد، وعن المعارك الآتية من أجل رفع راية الإسلام التي لم يتوانَ البعض عن سحقها في مجموع العالم، وعن الحروب التي يفرضها علينا الرب من

أجل استرجاع كرامتنا المُهَانة وإعلاء راية إمبراطوريتنا المنهارة. في النهاية، كانت هناك الجنة. وعندما كنا نلتحق بخيامنا من أجل النوم، كنت أرى في السماء، التي يمر عبرها خيط هلال، ملاكا يبتسم لي.

لم يحدث خلال إقامتنا سوى نشاز واحد أحزنُ عليه لأني أرخيت قبضتي أمام حبائل الشيطان. أطلب المغفرة من الله لأن نبيل وأنا مارسنا الحب. لا أفهم جيدا كيف حدث ذلك. لم نخطط للأمر، لكنه حدث. من أجل أن نحس بالدفء كنا قد دخلنا أحدنا في الآخر في تلك الخيمة التي كان سقفها منخفضا كأنه قبر. لا أعرف إن كنا نائمين، لكن عقلينا الخدرين كانا في مكان آخر. لا بد أن هواء الجبل كان هو السبب. لمسني جسد نبيل وأحدث انتصابا مفزعا في عضوي. أمسكه في يده بكل بساطة وتبادلنا القبل. خلعنا ثيابنا دون تفكير ومارسنا الحب. في صمت.

ها قد قُلتُه.

15

كنت أعرف حميد جيدا حتى أنه عندما سحبني إلى المقهى من أجل التحدث معي في أشياء خطيرة، أخبرته أني موافق قبل أن يكمل جملته. نظر إلي بعينين تشعان وهو يدمدم : «ليس أمامنا خيار». وافقت لأنه كان من المطلوب أن يضحي أحد. كانت أول مرة أرى فيها الفزَع على وجه أخي. هو، البطل، ابن سيدي مومن الصعب المراس، كان صوته متهدجا ويداه ترتعشان. ربما لم أكن قد فهمت بعد خطورة الأمر. وكان هذا كل شيء. لم نعاود التحدُّث في الأمر. كنت آخر من عرف تاريخ الهجوم الكبير. شيء غريب: لم يرفض أي من أصدقائي أن يَمُوت. رغم أن الأمر لم يكن شيئا بسيطا، الموت. نبيل الذي كنت أعرفه خوافا أجاب بنعم لأنه لم يكن له من أهل سوانا. لم يكن يرى والدته منذ مدة و لم يكن ذلك يزعجه. كان قد منعها من زيارته في الكوخ. قرار لا رجعة فيه أخذه أمام الجميع. تبرأ منها علنا ليقطع صلته بها نهائيا. لكن طامو لم تستسلم، لم تتقبل أن تفقد ابنها الوحيد. كانت تأتي لتحوم في الجوار وكان قلبي يتقطع. كان نبيل لا يتحرك وهو يراها تجلس قرب السقاية والحلوى على ركبتيها. كانت تنتظر مرور أحد الأطفال لتبعثها معه. لم يكن نبيل يقبلها وكان يعيدها لها، أو يقول للطفل : «خذها إلى منزلك، أمنحك إياها». كانت طامو تنظر في صمت. لكن ذلك لم يكن يثنيها عن العودة في

الأسبوع المقبل وإحضار حلوى أخرى والجلوس على الحجرة. كان نبيل يتصرف كأنها غير موجودة. كان يرفض سلالي المؤن التي يمنحها أبو الزبير لأسرنا بدعوى أنه يتيم. كان الشيخ يتظاهر بتصديقه، لكنه في الواقع، كان يعرف كل شيء عنا. كان نبيل يقول إنه في الوقت الذي ستقرر فيه طامو التوقف عن بيع جسدها، وتندم عن ذنوبها، سيكون هناك حديث آخر. كان قد تغير كثيرا. كان قد أصبح متصلبا. ظلت مهنة أمه ندبة في وجهه. كان ابن طامو. طامو القحبة. كان ابن قحبة. انغلقت الدائرة. حتى وإن لم يكن أحد يتحدث في الأمر، فإنهم يفكرون فيه. ثم كانت هناك الحكاية التي ظلت العجائز المحبات للنميمة يحكينها باستمتاع. أجهل إن كانت صحيحة، لكنها أثرت كثيرا في نبيل.

عشية مولده، قصدت أمه المستشفى في سيارة أجرة. ولأن الطريق كان طويلا، كان أمامها وقت للتحدث مع السائق الذي كان ثرثارا. عندما وصلت أمام الباب، طلبت منه أن يساعدها في حمل سلتها لأنها كانت مضطرة إلى إسناد بطنها حتى لا يتوقف جنينها عن التحرك راغبا في رؤية النور بسرعة. قبل الرجل وساعدها على صعود الدرج. في مكتب الاستقبال، أعاد لها السائق حقيبتها وطالب بأجرة الرحلة. صرخت طامو :

– كيف هذا، تتركني ؟

– نعم سيدتي، عشرون درهم.

– وابنك ؟ ماذا سنفعل بابنك ؟

– عن أي ابن تتحدثين سيدتي ؟

– عن الطفل الذي وضعته في أحشائي، يا مخبول.

– أنا لا أعرفك أيتها المرأة. هي مزحة ؟

وضعت طامو يديها على أذنيها وأخذت تصرخ.

– يريد أن يتركني، يريد أن يترك ابنه. أحضروا الشرطة، هذا الرجل نذل !

– أنتِ حمقاء، يا امرأة . مستشفى المجانين هو ما يلزمك !

وعندما كان يتهيأ للانصراف متنازلا عن أجرة الرحلة، أمسكت به الممرضات وحبسنه لحين حضور الشرطة التي وضعته في الحبس الاحتياطي لحين النظر في الأمر . بحثت عنه عائلته المذعورة في كل مكان. كانت له زوجة وثلاثة أبناء يحبهم. كان يعيش حياة مريحة في المدينة العتيقة لأنه كان رب عمله. كان قد انتهى من أداء سلفة التاكسي وكل شيء كان يسير على نحو جيد. تطلب الأمر يومين لزوجته وأخيه قبل أن يجداه في قسم الشرطة المركزي. أعلنوا لهما الخبر المروع: كان الرجل يعيش حياة مزدوجة، حيل فتاة وضعت صبيا جميلا يرفض أبوته له. أغشي على زوجته ثم استفاقت. اقترح عليها تكليف محام، لأن الفتاة الأخرى كانت قد رفعت شكوى من سرير المستشفى. هكذا بدأت الأمور تتعقد. طمأنهم المحامي، لأنه أصبح بالإمكان التأكد من حقيقة البنوة بفضل التقنيات الحديثة. على أي، كانت نتائج تحليل الحِمض النووي حاسمة. لا تقبل المناقشة، حتى إن السائق كان عقيما من مولده. لكنه كان أبا لثلاثة أبناء يشبهونه، خاصة البكري الذي كان نسخة منه. هل هذا ممكن ؟ بعد الكثير من المماطلة انتهى الأمر بزوجته إلى أن تعترف. كانت تحب زوجها أكثر من أي شيء في العالم. وعندما علمت أنه لا يلد وأنه من الممكن أن يطلقها، عاشرت الأخ. لكن فقط بهدف ولادة أطفال لهم علاقة عائلية بزوجها. برئ السائق من الاتهام، وعندما خرج من دائرة الأمن، قاد سيارته إلى حافة جرف وارتمى من هناك. هكذا، وُصِمت ولادة نبيل بمأساة مروعة لم تكن تبشر بخير للمستقبل. عندما يصيبك النحس في بطن أمك، فهو لا يتركك أبدا. لكنني عبثا شرحت لنبيل أن الخطأ هو خطأ الناس الذين ألقوا بنا في هذه الحفرة، وأن طامو لم تكن مسؤولة لأنه كان عندها طفل عليها أن تطعمه، وأنها كانت تقاوم على قدر ما تستطيع، وأنها في العمق لم يكن أمامها من خيار، لكنه لم يكن يستمع لي. أو كان يقول: «دائما عندنا خيار». لم يكن من وسيلة لترطيب موقفه.

عزّي أيضا لم يُرمِش عندما عرض عليه الأمير زيد الأمر. أطلق مزحة حول الفرح الذي تحدثه فكرة الذهاب لأنه لن يرى وجه والده الكئيب مرة أخرى. كنت أعرف أنه يعاني، وأنه متعب من تحمل ذنب موت شقيقه الصغير. كان يريد التخلص من هذا الحمل الثقيل، استعادة الاسم الذي سلب منه، أن يرجع يوسف. يوسفا حرا مثل الهواء. تغيير الجلد، تزوج العدم، الانبعاث من جديد في مكان آخر...

قلق فؤاد من أجل غزلان لكنه لم يرفض دعوة أبي الزبير. كان شرفاً يُمنَح له. الحصول على لقب شهيد مع مفاتيح الجنّة لم يكن في متناول الجميع. كان يريد فقط أن يتأكد مما إذا كان الأصحاب سيعتنون بأخته الصغيرة. لم يكن عندها غيره. كانت الجدة على وشك الرحيل وستظل غزلان لوحدها في دوار سكويلة. أقسم أبو الزبير أن الحماية ستتوفر لها. وأنه سيعتني بها كما سيفعل مع ابنته. طمأننا نحن الاثنين.

بالنسبة لخليل ماسح الأحذية، فقد كان راغبا في تغيير المكان منذ فترة طويلة. وعوضا عن باريس ومدريد وميلانو مع احتمال أن يأكل السرطان عينيه، قبل الذهاب دون إياب إلى الجنة. ربما أصبح فيها مغنيا عاطفيا للحور والملائكة ...

مر اليومان اللذان سبقا القَفْزة الكُبرى أسرع مما كان متصورا. لم يكن مسموحا لنا بمغادرة الكاراج تحت أي عذر. صلينا كثيرا. لم تسد فكرة الموت الوشيك شهيتنا. استحققنا مثل المحكومين بالإعدام وجبات أفضل: طاجين بالخرشوف والزيتون المر، بسطيلة بالحمام (كنت أعرف هذه الأكلات بالاسم فقط)، دجاج بالليمون المرقد... كانت لذيذة حتى أن الأمير زيد، خوفا من أن تجعلنا هذه الملذات نندم على مغادرة هذه الدنيا، لَفت انتباهنا إلى أن أطباقا أفضل، وبمذاق لا يضاهى، تنتظرنا فوق. ثم دعم كلامه بآية من القرآن.

كان الأخوان عُبيْدة في قاعة التدريب للتدقيق في آخر التفاصيل التقنية. أحزمة الجنة كانت جاهزة. التحقنا بهما ليلا من أجل حصة

تجريب. قسنا الصَّدْريات، ولما كانت صدريتي ضيقة، استبدلها فؤاد مع صدريته لأنه كان نحيفا. كان جبين حميد يتصبب عرقا وكان ينظر إلي مذهولا. لم يكن يفهم لماذا كنت هادئا ورائقا تقريبا. من فوق سحابتي، يبدو لي ذلك مثل لعبة ؛ لعبة الموت والحياة المتعانقين برغبتهما. لكن المنية في سيدي مومن كانت جزءا من اليومي. لم تكن مفزعة إلى حد كبير. كان الناس يجيئون ويروحون، يعيشون أو يموتون دون أن يغير ذلك شيئا في معادلة بؤسنا. كان عدد أفراد الأسر كبيرا حتى أن فقدان فرد أو أكثر لم يكن مصيبة. هكذا كانت الأمور. كنا نبكي موتانا طبعا، ندفنهم في البكاء والصراخ، لكن كان هناك الكثير مما يجب فعله مع سلسلة الأحياء بحيث ينتهي الأمر إلى نسيانهم، بسرعة. لكن المَنِيَّة تظل حاضرة دوما. تبنيناها. سكنتنا وسكناها. كانت تخرج من عيوننا الحمر ومن قبضاتنا المطبقة من أجل هروب وجيز. كانت تحوم بلباس أبيض على خراب مدينتنا وتعود لتختبئ فينا. كنا البيت الذي تستريح فيه وكنا نجد السلم ونحن نتكئ عليها. كانت المنية حليفتنا. كانت تخدمنا ونخدمها. كنا نسلفها أحقادنا وانتقامنا وسكاكيننا. كانت تستعملها بأفضل ما يكون وتعيدها إلينا لتطلبها من جديد. مرات ومرات. كانت تخلصنا من ورطاتنا لذا كنا ندين لها بالكثير. تلك الليلة، في القاعة الخفيفة الإنارة، كانت هناك لتدعمني مرة أخرى. واقفة بجانبي، كنت أحس بها ترتعش. كانت فاقدة الصبر. كان حضورها غير المرئي قد بلع الناس المحيطين بي. لم أعد أراهم. كنت وحيدا معها و لم أكن خائفا. كانت قد بسطت أجنحتها السوداء حول جسدي الضعيف فاستسلمت. لم أكن أفكر في شيء آخر سوى السعادة بالطاعة. كنت عبدا لها وكنت سعيدا بالانتساب إليها. كانت المنية تفكر عوضا عني. كان علي فقط اتباع تعليمات الأخوين عبيدة وسيتم كل شيء كما يجب. الحافلة رقم 31، فندق جِينّا إين، والخيط الذي كان عليّ أن أسحبه في اللحظة المناسبة. لم يكن الأمر معقدا. همست في أذني بهذه التفاصيل. لعدة مرات. كررت

في ذهني هذه اللازمة لأُخزِّنها في ذهني إلى الأبد. ثم، مثل أميرة عجوز، نظرت إلي وأشارت إلي بأصبعها. اختارتني المنية، أنا، من ضمن قبيلة حفاة، وابتهجتُ لأنها اختارتني أنا. كنت مستعدا للاستجابة لنزواتها من أجل أن تسمح لي بضمها. أن أتمسك بها وأطير معها. أن أعبر السماوات السبع وأُبعَث من جديد في مكان آخر. أبعد من سيدي مومن، ومن صفائحه المتموجة، ومن أوساخه وحُثَالته. أن أتنفس هواءا آخر وأطرد حتى ذكرى المزبلة. أن أثمل من العدم وأقتل الملل. أن أنتهي من الوحل والحشرات. ألا أرى الأطفال بالأسمال يجرون خلف شاحنات الأزبال ويتعاركون ليكونوا أول من ينقب، أول من يدخل بنصف الجسم في أكوام النفايات. لا، لم أكن راغبا في أن أرى هذه الآلات الفظيعة تصب على الطفولة بقاياها ونفاياتها مرة أخرى.

وأنا أرتدي الصدرية المُصفَّحة بالمتفجرات، كنت قد أصبحت ترابا. أحسست بإحساس غريب. كنت جسدا واحدا مع الأرض والسماء والنجوم التي تمطر الليل الأسود. كانت كلمات الشيخ تتلألأ في ذهني وكنت أحس أني لا أُقْهَر. لا، لا نستطيع فعل شيء ضد رجل يريد أن يموت. وأنا كنت أريد ذلك بشدة. نبيل وعزّي وخليل وفؤاد وحميد أيضا كانوا يريدون أن يموتوا. بالعيش في سيدي مومن، حيث تحيط بنا الجثث والعرج والزحافون، كنّا شبه موتى. لذا فأية أهمية أن يزيد الأمر قليلا أو أن ينقص !

ظل حميد يتصبب عرقا مما أقلق الأخوين عبيدة. لا بد أنهما أخبرا أبا الزبير. غادرنا المحل وذهبنا جميعا إلى الحمام. اغتسلنا وقلعنا الشعر الزائد كمن يتزين لعرس. نكتنا حول مؤخرة نبيل الذي رفض أن يدلك. كاد يغمى على فؤاد عندما أحضر لنا الأمير زيد ثياب الليلة الأخيرة. ثياب نظيفة، شديدة البياض تتطلبها أجسادنا التي تَطهَّرت من الأدران.

عندما عدنا إلى الكاراج، سحب أبو الزبير حميد إلى إحدى الزوايا وظلا يتحدثان فترة. بعد ذلك تحسنت حالة أخي. التحق الشيخ بمكانه

وسط الغرفة وصلى. ثم ألقى خطابا باختصار: «تذكروا أبنائي أن عدة تحديات تنتظركم هذه الليلة. لكن يجب أن تواجهوها وتفهموها. [مضى زمن اللعب. حلت ساعة الحساب. يجب إذن أن نستغل هذه الساعات في طلب المغفرة من الله. يجب أن تتأكدوا أنه لم يتبقَّ أمامكم الكثير من الوقت لتعيشوه. بعد ذلك، ستبدأون حياة الراحة، الجنة التي لا تنتهي. كونوا متفائلين. كان الرسول متفائلا دوما. صلوا، اطلبوا المعونة من الله. استمروا في الصلاة طيلة الليل. قطعتم العهد بالموت ثم جددتموه حباً في الله. هذا الأمر يشرفكم. أفهم جيدا، الكل يكره الموت؛ الكل يخشاه. لكن تذكروا هذه الآيات التي تقول إنكم ستتمنون الموت، قبل أن تلقوه، إذا عرفتم ما ستجزون به من بعد».

ثم رددنا الكثير من الصلوات وكان صوت حميد يخرج من المجموعة. كان مأخوذا بالجو الديني لتلك الليلة غير الاعتيادية، وكان حماسه قريبا من الغشية. هل كان الخوف هو الذي يقلق مضجعه ؟ بلا شك. لأنه كان أكثر وعيا منا وكان يعرف أن هذا السفر بدون رجعة. مغادرة السفينة أمر مستحيل لأنه يعرف النتائج. ثم كان قد التزم، مثلنا جميعا، ويده على المصحف الشريف. لم يكن حميد لا خائنا لله ولا لأبي الزبير ولا لي ولا لباقي أعضاء المجموعة. ربما ندم على الزجّ بي في هذا الأمر؟ لا أعرف بالضبط. في كل الأحوال، لم يكن نفسه. كانت عيناه مختلفتين. لم يكن ينظر إلى الخارج. بدلت مكاني مع فؤاد لأجلس بجانبه. أردت أن أُطَمئِنه لكنه كان في مكان آخر. توالت السور. رمت النشوة برملها الذهبي على عقولنا الثملة. كانت الجنة هي النجم. كنا قد بدأنا نتمدد فيها. لم يكن الجو فيها حارا ولا رطبا كما هو في الكاراج لأننا كنا نقطر. لن تكون فيها أيضا روائح مزعجة. لا أريد أن أقول، لكن حميد كانت تنبعث منه رائحة العرق. لم يكن ذلك من عادته. كان دائما نظيفا. بالإضافة إلى أنه مع الوضوء خمس مرات في اليوم، يجب فعلا أن يرغب المرء في أن يكون قذرا. مهما يكن، فقد ظللنا مع بعضنا جزءا كبيرا

من الليل. بعد صلاة الفجر، أحضروا لنا أغطية وتمددنا على الحصيرة، منهكين وشبه ميّتين.

لم أرَ أحلاما تلك الليلة.

16

استيقظنا على الساعة العاشرة في اليوم الموالي. كانت عينا أبي زبير محاطتين بهالات كأنه لم ينم. الأمير زيد كان قد حلق لحيته خلال الليل وبدا كأنه أصبح أصغر دفعة واحدة. بالكاد تعرفت عليه. بدا كمراهق يحمل حقيبة سلمها إلى الشيخ. انعزلا في أقصى القاعة وتحدثا بصوت خفيض للحظة. كانا قلقين. وصل نصير والأخوان عبيدة بعد ذلك. كانوا قد استبدلوا غندوراتهم البيضاء بملابس عصرية: سراويل مقلمة وبدلات زرقاء. كانوا يشبهون توائم. هم أيضا كانوا قد حلقوا لحاهم وقصوا شعورهم. صَفَّر عزّي عندما رآهم وضحكنا قليلا. كان نبيل وفؤاد واقفين، خائرين بسبب النوم. بدا حميد أكثر هدوءا من الأمس. ضرب على كتفي وكنت سعيدا باستعادته. تناولنا فطورنا معا في الكاراج: خبز وزيت زيتون وشاي بالنعناع بالقدر الكافي من السكر. لم يحدثني عن يمّا، لكننا نحن الاثنين كنا نفكر فيها. لم أكن جائعا، لكني أكلت بشراهة، متصورا أنها آخر وجبة لي. لم أجد الطعام أكثر لذة من قبل. من الكوة فوق الباب كانت تدخل أشعة الشمس. بدا اليوم جميلا. عبر أحد الأشرطة، كان صوت رخيم يرتل القرآن. استمعنا إليه بصمت. كلما ذكر اسم الرسول كان ينطلق في القاعة : «عليه الصلاة والسلام». في الواقع كان اهتمامنا مركزا أكثر على طريق كل واحد. كان علينا

الذهاب نحن الستة إلى فندق جينّا إين، لكن في مجموعتين. في الأولى فؤاد ونبيل وأنا، ثم خليل وعزّي وحميد. أما بالنسبة للأمير زيد وأصحابه فقد كان عليهم مغادرة المدينة من أجل مهمة أخرى. توضأنا وصلينا صلاة جماعية أمّها أبو الزبير. كنا نستعجل لقاء الملائكة المفترض أنهم ينتظروننا بعد القفزة الكبرى والذين سيهتمون بنا ليقودونا إلى الله. ذكرنا أبو الزبير بأننا لا يجب أن نتوقف عن تلاوة الأذكار لأن إبليس سيحاول بشتى الوسائل أن ينقذ العُصَاة. حيله لا نهاية لها. سيزرع الشك في عقولنا ويفعل المستحيل ليكسر إصرارنا. كنا نحارب باسم الله. كنا جنوده. حلت ساعة الجهاد. هنأنا لكون اختيار الرب وقع علينا لنحقق رغبته. قال إنه لا داعي للخوف من أعداء الإسلام، كنا نمسك أقدارنا وأقدارهم في طرف خيط. يكفي أن نجره كي نبعث بهم إلى الجحيم. الله أكبر ! الله أكبر !

غادرنا الكاراج بأفواج صغيرة لنذهب إلى قاعة التدريب. أعمانا الضوء القوي وتطلب منا الأمر فترة حتى نتعود على صخب الشارع وألوانه. صدم رجل على دراجة معه زنجي صغير يجلس من أحد الجانبين خليلا. سقط الطفل وسال الدم من أذنه. لم يصدر أي رد فعل عن خليل واعتذر رغم أن الخطأ صدر عن راكب العجلة. في الأوقات العادية، كان يمكن لهذا الحادث أن يتحول إلى مشاجرة ويفتن الحي. ساعد خليل الطفل الذي كان مغمى عليه على النهوض وأعطاه لوالده الذي انطلق على الفور. كانت المزبلة مليئة بالناس كعادتها. بين خرير العربات الفظيع وصوت أم كلثوم المتأوه من دكان لدكان، والخناقات العادية ونُباح الكلاب، كنا لا نزال نسمع القرآن الذي يقرأه بعض العميان الضائعين لتلبيين القلوب. كانوا قد أخطأوا الحي الذي سيتسولون فيه وكانوا يسيرون الواحد وراء الآخر ممسكين بتلابيب جلابيبهم. كان الأعمى الذي يسير في المقدمة يمسك عصا يلوح بها في الفراغ لأن الأطفال كانوا يزعجونه. نظرت إلى حميد الذي ابتسم لي. كنا نتصرف مثلهم في مثل

ذلك العمر. لكنه في هذه اللحظة طرد الأوغاد بالصراخ فيهم. وجدت نفسي أشارك العميان قراءة السورة. مررنا بالقرب من دكان عمر الفحام. توقف عزّي لحظة ليقبّل رأس والده. قَبِل العجوز اعتذاره وقال إن بإمكانه الرجوع إلى البيت لأن أمه كانت حزينة. قال له : «إن شاء الله»، لكننا كنا نعرف أن الله قَدَّر شيئا آخر من أجلنا. بالنسبة لي كنت أتحرق شوقا للذهاب لتقبيل يدي يمّا ورجليها اللذين تختبئ تحتهما جنتها. كنت أريد أن أمضي بعض الوقت مع والدي الذي لم أكن أعرفه إلا قليلا. كنت سأعانقه لأول وآخر مرة. كان سعيد سيزعجني بانتقاداته للسياسة الأمريكية الجائرة والفيتو المخجل الذي تستعمله في الأمم المتحدة، وكنت سأتظاهر بأني أفهم سير العالم. وما دمنا فيها لم لا أمر على دوار سكويلة ؟ كنت أفتقد غزلان كثيرا. كنت أريد أن أضمها بين ذراعي وأطلب منها أن تسامحني لأني أهجرها. أطلب الصفح عن الوعود الصامتة التي قدّمتْها عيني، والتي لم تنطقها بها شفتي، ولا بد أنها خمنتها. الصفح لأني تركت أخاها ينزلق معنا في الأمر في الوقت الذي كنا قادرين فيه على الاستغناء عن خدماته. ستة شهداء من أجل مكان واحد، العدد كبير. واحد كان كافيا. لكن الانفجارات كان يجب أن تتم في عدة أماكن من الفندق وأن يفصل بينها ربع ساعة كي تحدث أكبر قدر من الخسائر. على أي، لم يكن لنا رأي في الموضوع. أوامر الشيخ لم تكن تناقش لأنه هو نفسه يأخذها من الله. أكيد أن غزلان كانت ستسعد لرؤيتي. كانت ستحدثني عن أشياء تافهة وكان ذلك سيعجبني. كانت ستسخر من اندفاع كلامي المفخم وكنت سأطلب الصفح وأنا جاثيا على ركبتي، الصفح عن كل ما كنت سأقدمه لها لو لم يطلب الله لحمي ودمي. كنت سأسرق منها قبلة أخيرة وكنت سأرتعش مرة أخرى. كنت سأصرح لها بكل ما يثقل قلبي، كل ما لم أعرف أن أقوله لأن الكلمات الثائرة لم تكن تُطيعني : «أحبك إلى ما لا نهاية لكني ذاهب، حبيبتي، لأنه ليس أمامي خيار. إلى متى سنتحمل الإذلال والاحتقار والعيش مثل

فتران في سيدي مومن ؟ هو ذا، فكرت في الأمر، سأذهب لأموت. سأنتقم لك من الذين سرقوا طفولتك ومرغوا أحلامك في الوحل. سأجعلهم يُسدِّدون دينهم كاملا عن سنوات الاستعباد التي حملونا إياها. سيتألمون مثلما تألمنا. كل هؤلاء العملاء الذين يفعلون مثل النعامة، سأرفع رؤوسهم وأذبحهم مثل الخرفان. فليبك أبناؤهم كما بكينا. أنا ذاهب حبيبتي، لكن عديني بالاستمرار في التطريز. أنت تملكين الكثير من الموهبة. أنا متأكد أنه في أحد الأيام ستحصلين على اعتراف بذلك وستعيشين بطريقة لائقة بفضل فنك. أعرف أنك تعتنين بأمّي للاّ لكن يجب أيضا أن تفكري في نفسك. كانت محقة، يجب أن تهتمي بجهازك لأنه ذات يوم سيأتي شاب ويطلب يدك. يجب أن تكوني مستعدة، وأن تكوني في المستوى، كما كنت دائما. عِديني بأن تكوني سعيدة، لأنك تستحقين ذلك. لا أريد أن يصيبك سوء. في جميع الأحوال، تأكدي بأني سأكون معك باستمرار. حتى عندما سأعانق الحور (هيا لا تكوني غيورة !)، أنت من سيحتل أفكاري. سأشرب كل خمر الجنة في صحتك. وسأنتظرك لأنه طال الوقت أو قصر يموت المرء في النهاية. أنا سأقوم بذلك قبل الأوان من أجل القضية، لكن، أنت، لست مستعجلة. يمكن أن تأخذي وقتك وتنجبي أطفالا وترينهم يكبرون. امنحيهم الحب الذي حُرمت منه. لا أريدهم أن يعيشوا في سيدي مومن لأن الأمل فيه مفقود. دمره حلفاء الشيطان. إذا أنجبت ولدا، سميه ياشين. هو أفضل حارس عرفته الأرض. سيجلب له الحظ. سأنتظرك في الجنة، أعدك بذلك. حينئذ سيمكننا أن نتحاب ونتبادل القبل مثلما حدث ذلك المساء في الظلام، قرب منزلك. كان عذبا أن أقبلك».

أوقفت حلمي هنا لأننا كنا قد وصلنا قرب المحل.

كانت الأوامر أن نتبع بعضنا مع ترك بعض المسافة، وألا نفترق، وألا نتحدث مع أي أحد، لكن الأمير زيد وأبا الزبير كانا يغضان الطرف. كانا يسيران غير بعيد عنا وينظران إلينا بطرف خَفي.

في المحل، كان كل شيء جاهزاً. كان الأخوان عُبيدة قد هيئا الأجهزة بعناية. في جيوب الصدريات كانت توجد متفجرات حقيقية. تدريبنا كان قد تم بالقرميد. لذا طلب منا الأمير زيد التزام الحذر الشديد. فسر لنا الأخوان عبيدة أن الآلية بعد أن تركب لا يمكن لأحد غيرهما أن يفككها. أحسست بجسمي يرتعش. عانقنا أبو الزبير الواحد تلو الآخر وفعلنا نفس الشيء مع بعضنا. أحسست بالدموع في عيني عندما عانقني حميد. جاء دوري لأنهار، لكن أحدا لم يلاحظ شيئا. مهما يكن، كانت أعيننا جميعا تلمع. قرأنا القرآن ونحن نرتدي الصدريات التي ثبّتها الأخوان عبيدة بحذر، لعنا الشيطان وجيوشه من العصاة، وخرجنا للقاء أقدارنا. كنت مع فؤاد ونبيل من سينطلق في البداية. الآخرون كانوا سيستقلون الحافلة الموالية. رافقنا الأمير زيد وأصحابه إلى السور ثم انصرفوا كما جاءوا ذات مساء إلى سيدي مومن. هكذا، تم إطلاقنا في الطبيعة مثل ذئاب جوعى، مستعدة لالتهام الكوكب بأكمله.

17

كان بوّاب فندق جينّا إين يضع على رأسه طربوشا مصغرا، ويلبس زيا أحمر بنياشين ماريشال مذهبة. لم يلحظ دخولي لأني تسللت بين ناقلي أمتعة يدفعون عربة من الذهب مليئة بالحقائب. دخل برفقتي مجموعة من السياح بلون مُحنَّط كأنهم جُثث. كان فؤاد ونبيل سيوافيانني بعد حين لتفادي إثارة انتباه الحارس. كانت البوابة الزجاجية تدور كأنها في رقصة. وفجأة، النور... فيض من المصابيح يتلألأ في ممر كبير حيث كان بالإمكان أن نحسب أنفسنا في الجنة التي يتحدث عنها أبو الزبير. عذارى عاريات الظهر على أحذية بكعب عالي يذهبن ويجئن على أرضية ملساء تلمع من النظافة. لم تكن عيناي قادرتين على مفارقة الأحذية التي تنزلق حولي، ملونة، وبراقة، كأنها صنعت خصيصا لهذا النوع من البلاط. والموسيقى ! نوتات متتالية، خفيفة ورقيقة، بعيدة عن صخب طبولنا وأجراسنا، تطير في الهواء المُعطَّر كما لو أن كل واحدة منها يحملها ملاك صغير. ضحكات موزونة تطير من بعض الأماكن وتهبط ببطء مداعبة أذني لدرجة أنستني أنني سأموت بعد قليل. هكذا إذن دخلت غرفة الانتظار في العالم الآخر الذي يفتح لي ذراعيه ويهمس في أذني أعذب الوعود. تساءلت حينئذ إن كنت قد شغلت الآلية التي تحيط بصدري. كاد قلبي يتوقف عن الخفقان عندما سألني أحد الحراس

عما أفعله في المكان. أخبرته أني أنتظر مشغلي فتركني وشأني مع الاحتفاظ بنظره علي. أخذت أنظر عبر الواجهة الزجاجية التي تطل على الحديقة. عذارى عاريات الأثداء، والعانة بالكاد تغطيها قطعة ثوب بمقاس ورقة كرم، ممددات على أسرة غريبة في ظل شمسيات مزركشة؛ وأخريات يسبحن في أحواض مياه زرقاء صافية كأنما انصبت فيها السماء. وسط الحوض تنبثق باقة من النخيل لتسعد العصافير. على اليمين، بعد صعود ثلاث درجات يمتد المطعم. موائد مغطاة بمناديل بيضاء، فوقها صحون مزينة بزهور، وكؤوس مدورة وأدوات أكل من الفضة. كل شيء يلمع في الشمس ويدعو إلى الطعام والشراب واللهو. كانت رائحة الشواء لذيذة. استمر قلبي في الخفقان بجنون لأن الحارس كان قد عاد وأخذ ينظر إلي بطرف عينه. رغم أني كنت نظيفا وكان حذائي الرياضي جديدا. كنت أرتدي قميصا رياضيا عريضا وسروال جينز سلفني إياهما أخي حميد. عندما رأيته يتجه نحوي، وضعت يدي على الخيط رغم أوامر الأمير القاطعة : أن أحيط نفسي بأكبر عدد من الخونة قبل أن أسحب. لكن الحارس مر بجانبي واتجه نحو زبون كان يناديه. تنفست الصعداء. تأخر فؤاد ونبيل عن المجيء. الدقائق القليلة بدت لي دهرا. جلست على متكأ وأحسست بالغثيان لأني لم أكن متعودا. أحسست كأني أُمتَص في الهواء. أتى كلب بحجم قط وأخذ يشم رجلي كأني مشيت على البراز. لم يسبق لي أن رأيت حيوانا بهذا الشكل، شعره طويل مجعد وأملس. لا صلة بكلاب المزبلة الضائعة. كان فمه بالكاد يُرى. ركلته برجلي ركلة خفيفة من تحت المائدة كي يبتعد، تأوه ثم ابتعد. جرت صاحبته لتأخذه، ضمته إلى صدرها الضخم وداعبته وهي تنظر إلي بازدراء. تظاهرت بأني بريء وواصلت النظر بعيدا لكن العجوز واصلت الالتفات وهي تنصرف لأنه لم يكن هناك غيري على الأريكة. ولم يكن من عادة كلبها الصراخ بدون سبب. أحسست بالارتياح وأنا أرى نبيل يتقدم في الممر. أشرت إليه أن يمشي ببطء لأن

الأرضية كانت زالقة. كان نبيل بلباسه، وشعره الكستنائي، ومشيته الظريفة مثل أحد زبائن الفندق. تقدم بشكل عادي، تفادى آنسة تجلس خلف طاولة يبدو أنها كانت تُرشد الناس. مر بالقرب مني وتصرف كأنه لا يعرفني. تأخر لحظة قرب المطعم الذي كان يجلس فيه بعض الأجانب. مع أن الساعة كانت فقط السادسة بعد الظهر. ربما هي عادتهم. أو أن الناس في هذه الأماكن أغنياء جدا لدرجة أنهم لا يتوقفون عن الأكل. وفيما يخص مسألة الجنة خمّنتُ أن هاته تناسبني تماما. لم يكن من داع للذهاب فوق ليكون المرء سعيدا. أن آكل طيلة اليوم وأن أتمدد مُحاطا بالحوريات كان أمرا سيعجبني. كان الشيطان قد بدأ عملية الحفر ليُعقّد الأمر، ويمنعني من سحب الخيط وينقذ الكفار. بدأ صبر نبيل ينفد لأن فؤاد لم يظهر. قلقنا من أجله. مر رومي قرب صديقي وتحسس مُؤخرته. قلت في نفسي إن نبيل هنا أيضا كان سيعاني من مشاكل مع مؤخرته.

خلف طاولة مغطاة بخشب ثمين، كان رجلان شديدا الأناقة يستقبلان السياح. لم تكن ابتساماتهما تشبه ابتساماتنا. كانت تبدو زائفة لأنه لا يمكن للمرء أن يبتسم من الصباح إلى المساء حتى وإن كان سعيدا. لا بد أنهما تدربا كثيرا على جر وجنتيهما، لكن بقية الوجه كان بدون تعبير. كان يبدو أن السياح راضين بذلك ويتصرفون على نفس النحو وهم يملأون استماراتهم. عند رؤية أطفالهم يلعبون حول الحقائب، فكرت في الطفل الفلسطيني الذي مات بين ذراعي والده. بمجرد أن دارت الحلقة في رأسي من جديد، نهضت وتوجهت ناحيتهم. كنت أتقدم مثل من يسير في النوم. كنت أنا نفسي وفي نفس الوقت كنتُ كائنا آخر. كنت ألاحظ أدقّ التفاصيل كما لو أن عقلي قد صحا فجأة، ووصل إلى بعد أسمى. نظرت ناحية الباب ولم أر فؤاد. كان الماريشال في مكانه والجثث المستقبلية تواصل تدوير البوابة الزجاجية. كان الوقت يمر والأمور معرضة لأن تتعقد. لم يكن مستبعدا أن يكون فؤاد قد أحس بالخوف في آخر لحظة وأن يكون قد فر في شوارع الدار البيضاء. لا بد

أن نبيل كان يفكر في نفس الشيء لأنني ما أن وصلت إلى الطاولة، استدرت نحوه فأشار لي برأسه أن نعم. «نعم» جمدت دمي لأنها كانت تعني أن علينا أن نمر إلى التطبيق. عندما دخل إلى المطعم، أخذ قلبي يخفق بشدة. أخذ العرق يتصبب من جبيني ورددت الكثير من الأدعية ويدي المرتعشة تمسك بالخيط كأنه طوق نجاة. كنت أقاوم الشيطان، الذي لم أعرف بأية حيلة ماكرة، استطاع أن يعطي للأطفال الشقر الذين كانوا يلعبون قرب الحقائب وجه الطفل الفلسطيني الذي مات بين ذراعي والده. قرأت سورة بصوت خفيض ثم رفعته شيئا فشيئا، لكن الأطفال حولي ظلوا فلسطينيين. شددت الخيط بين يدي وكانت قوة سيئة التأثير تمنعني من جَذْبِه. ثم رأيت الحارس آتيا من بعيد بهيئة حازمة، كنت أعرف أنه يقصدني. كان على وشك أن يمسك بي عندما دوى انفجار في الفندق. ثم لم أر شيئا. لأنها كانت انتفاضتي التي سببها الانفجار الذي جرفني مع السياح حولي. الحارس أيضا تحول أشلاء، تماما مثل الكلب والخنزيرة التي كانت تحمله، وعاملي الطاولة وابتسامتهم الجامدة. كنت قد جذبت الخيط رغما عني لأن حيلة إبليس كانت قد أوشكت أن تفلح رغم كل دعواتي. كان صعبا، صعبا جدا أن أسمع ضحك الأطفال وأن أرى أيديهم وأعينهم والملائكة الذين يحرسونهم مُعلقين إلى خيط حزامي. كنت مثل لاعب دمى. كنت أمسك بمصيرهم بين يدي. نعم، كانت مجزرة، جحيما. كانت نهاية العالم. ثم حصلت مذبحة أخرى عشر دقائق بعد ذلك عندما دخلت المجموعة الثانية إلى الفندق. تلقى الماريشال الذي حاول سد الطريق أمامهم طعنة من حميد واستمرت النيران الاصطناعية التي فتكت بالناجين والمنقذين تزرع الحزن والرعب ؛ الدخان واللهب والغبار وبقايا الأثاث والأجساد ؛ صراخ، وأيضا صراخ، صراخ المبتورين والناجين. وغَرْغرة الموتى الذين لم يحالفهم الحظ للموت بسرعة؛ كانت الأنات ترن بلغات مختلفة لكن البكاء كان بلا لون وبلا وطن. بكاء بشر ممددين على الأرض، مذهولين ومتبلدي

الإحساس وضائعين. وكان الناس يَجْرُون في جميع الاتجاهات خوفا من انفجار آخر.

نعم، نجحنا أبعد من كل التوقعات. لا بد أن أبا الزبير والأمير زيد وأصحابه يضربون في أكفهم أمام أجهزتهم التلفزيونية. لا بد أن فؤاد يعدو مُهْتاجا في شوارع الدار البيضاء، بقنبلته على قلبه، باحثا عن الأخوين عبيدة لكي يبطلا مفعولها. أما بخصوصنا نحن، فقد كنا موتى، موتى بحق.

ولا أزال أنتظر الملائكة.

18

من عُمق أعماق وحدتي، عندما تجتاحني ذكريات غرقي وتعذبني، عندما يصبح وزن أخطائي ثقيل الحمل ويأخذ عقلي، العجوز والمتعب، في الدوران مثل آلة جهنمية، عندما تسقط دموع يمّا علي وابلا من النيران ويبث حزن غزلان في روحي سمه المهلك، أذهب لأحوم في سماء طفولتي.

غالبا ما أذهب هناك ليلا لأراقب الظلال المتحركة تجتاح المكان عندما تنطفئ آخر الأنوار. حينئذ أبكي، على طريقتي، منتظرا بزوغ النهار. لم يتغير الحي الصفيحي. لكنه امتد والمخيمات التي كانت في الماضي متفرقة تكوّن الآن مدينة. مدينة كبيرة من الموتى ـ الأحياء. أنتظر وأبكي أمام العجلة التي تواصل الدوران. المزبلة هناك، ثابتة، لا نهائية. في حركة عربات النفايات والمنقبين والنوارس وقطعان الماعز وهي تمضغ الأكياس البلاستيكية والكلاب والقطط التي تسبح في الدخان الرمادي وزوابع الغبار، أرى أطفالا هُزالى يَجُرون خلف كرة فارغة من الهواء، إنهم نُجومُ سيدي مومن الجدد.

تم طبع هذا الكتاب بمطبعة القرويين
رقم الإيداع القانوني : 2011MO2934
يناير 2012

نجوم سيدي مومن

ماحي بنبين

رسم لنا ماحي بنبين حي سيدي مومن بكل تعقيداته الاقتصادية والمجتمعية والروحية، رصد سلوكات سكانه، وجعلنا نكتشف البؤس والفقر والجهل وانتشار التطرف، وغياب الدولة، بل واستقالتها، بطريقة دفعتنا، كقراء، إلى انتظار النتيجة الحتمية، أي أناس تركوا لمصائرهم، ودفعوا دفعا لارتكاب فعلتهم.

نجوما كانوا يضيئون سماء سيدي مومن بمرحهم وعشقهم للحياة قبل أن يسقطوا فريسة لوحش كاسح أزهق أرواحهم وأرواح أناس آخرين أبرياء.

استطاع الكاتب ابتكار طريقة سردية فريدة وطريفة، بحيث أنه جعل السارد يستعرض علينا روايته للأحداث من الآخرة (العالم الآخر، وكأن هذا السارد لا يثق في عدالة البشر).

وكم كان المؤلف موفقا، وهو يرسم لنا هذه الشخصية، في تناقضاتها الإنسانية، في جميع حالاتها النفسية، من مرح وفرح وحزن ويأس.

استطاع ماحي بنبين أن يجعل من شخوص سيدي مومن، كائنات حقيقية، تتبدى بوضوح، في حالات ضعفها وهشاشتها وطيبوبتها.

ماحي بنبين من مواليد سنة 1959 بمدينة مراكش التي يقيم بها حاليا. متعدد المواهب... فنان ورسام ونحاة وروائي... حاصل على عدة جوائز أدبية من بينها : «الجائزة الأدبية المامونية» سنة 2010، جائزة «نبضة قلب» التي تسلمها جمعية «كو دو صولاي» سنة 2011، جائزة الرواية العربية التي يمنحها مجلس السفراء العرب بفرنسا عن روايته «نجوم سيدي مومن»، جائزة «البحر الأبيض المتوسط» عن روايته الأولى «نوم العبد» 1992، جائزة «الصداقة الفرنسية العربية» عن روايتيه «كانيبال» 1999 و «لقاحات» 2001. وترجمت أعماله الروائية إلى أكثر من لغة.

نشر الفنك

LA MAMOUNIA
MARRAKECH